لست ناقدا، فهذا شرف لا أدعية، وإذا كان اتهاما فلا أنكره مجاملة للسادة النقاد! وهاأنذا فى موقف بين الشرف والاتهام بعد أن طلب منى الأستاذ نبيل أباظة التحكيم فى مسابقة أخبار اليوم للقصص القصيرة، واختار من بين القصص المشتركة فى المسابقة، عشر قصص لينشرها فى هذا الكتاب.

قبلت بغير تفكير طويل، لأنى سعيد بمساهمة مؤسسة كبيرة كأخبار اليوم فى النشاط الثقافى والابداعى، ولأنى أتمنى لو أن مؤسسات مالية وصناعية كبيرة تحذو حذو أخبار اليوم وتساهم فى هذا النشاط لنتحرر من بيروقراطية تشرف وتتدخل فى ميزانية الدولة ولا تكاد تفهم أن للابداع الفنى والأدبى دورا فى بناء الانسان فى المجتمع، وأثرا مباشرا فى عملية التنمية ودفع عجلة الانتاج ومواجهة مشاكل اجتماعية بالغة الخطورة من أهمها مشاكل تنظيم الأسرة. ان خبراء وجهابذة وزارة المالية يلغون بجرة قلم مشروعات لترجمة الكتب ومازلت أعانى كمقرر للجنة للتفرغ فى المجلس الأعلى للثقافة من شطب اعتمادات منح التفرغ لأن السادة خبراء البيروقراطية لا يرون سببا لصرف مليم واحد على أديب أو رسام يمسك بقلم أو فرشاة ويشخبط على الورق! ولأن الابداع الأدبى والفنى ليس طعاما يأكلونه أو شرابا يشربونه أو لباسا يلبسونه، وهم يفكرون بنفس العقلية التى تأمر بقطع أشجار الحدائق لبيع أخشابها، وتحويل الحدائق إلى مبان، ويوفرون مصاريف علاج

التلوث ولا يهتمون بتلويث ميـاه نـهر النيل أو قذارة المدينة أو تسميم هوائهـا. انهم يجهلون أن الفن الجميل والذوق الرفيع بـالنسبة لعقل الانسان ومعنـوياته كـالأوكسجين النقى بالنسبة لـرئة الانسان وبما فيه جسده. وعلماء التاريخ والاجتماع يـؤكدون لنا أن ازدهار الآداب والفنون يواكب ازدهار الحضارة والعمـران، وانحطاط الابداع يواكب عصـور الانحـلال والاضمحـلال والتفسخ الاجتماعى. والعقـول المتفتحـة بـالعلـوم والفنـون هى وحـدهـا التى تستطيع التصـدى لمسئـوليـات التنمية فى عـالم تسيطـر عليـه أجهزة اتصـال وتتـدفق المعلومات كـالطوفان الهادر. ولابد من استجابة ذكيـة سريعة، ولابد من اختيار وقرار فى الوقت المنـاسب، ولا مجال لانتظار قرارات بطيئة تصعد وتهبـط سلالم البيروقراطيـة دون أن تبصر أبعد من مـواطىء أقدامها.

الاهتمام بتنمية روح الخلق والابـداع والابتكار، جـزء لا يتجزأ من تنمية المجتمع كله، بل مساهمة ـ أيضـا ـ فى النشاط الثقافى العالمى الذى أصبحت المساهمة مطلبا لابـد من تلبيته حتى لا تنعزل وتتخلف وتسقط فى قـاع لا نجـاة منـه. وإدراك هذه الحقـائق ليس تـرفـا، إذ يتوقف على هـذا الادراك، وسلامتـه، مستقبل الوطن والأمـة بلا أدنى مبالغة.

لـذلك أنتهز هـذه الفرصـة لتحية الأستـاذ الكبير إبراهيم سعـده، لاهتمامـه بهذا المشروع الثقـافى وأطـالبـه بأن يفكـر فى المسـاهمة فى مشروع تفـرغ الأدبـاء والفنـانين وأن يـدعـو المؤسسـات الماليـة والصناعية أن تساهم فى استثمار مـواهب كبار الفنانين وأن تمنحهم الفرصة لتحقيق أحلامهم فى الخلق والابداع الـذى هو ثروة حقيقية لنا وللانسانية جمعاء.

وفى يقينى أن وزارة الثقـافـة لا يخطـر ببـالها أن يكـون النشـاط

الابداعى مقصورا على مشروعات الـوزارة والقطاع العام، والدليل على ذلك أن فـاروق حسنى وزيـر الثقـافة طلب تعـديل لائحـة التفـرغ، ليتحـول الى استثمار للمواهب وليس معـاشات وإعـانات، وجـاء فى اللائحـة الجديدة أن تمويل منح التفـرغ قد يكون بمسـاهمة الهيئات والجمعيات ومؤسسـات القطاع الخاص. وليس هذا بدعـة فى تاريخنا الثقافى، فمؤسسات بنك مصر التى أقامها طلعت حرب هى التى أقامت ستوديو مصر للتصوير السينمائى.

البحث عن معيار للاختيار

اشترك فى مسابقة القصة القصيرة لأخبـار اليوم مئات المتسابقين، وبعـد تصفية أولى، استقـر الرأى على اختيـار ثلاثـة وستين «اسما» لكـاتب وكـاتبـة، كتب أغلبهم مجمـوعـات قصصيـة بمعـدل خمس قصص. أى أن الاختيـار الأخير جاء بين حـوالى ثـلاثمائة قصـة. كـان أصحابها مـرشحين للفوز بجـائزة النشر، وأرى نشر أسمائهم جميعا تحيـة لهم، واعترافا بأنهم أصحـاب موهبـة ـ ربما تحتـاج إلى بعض الصقل أحيانا ـ لكنهم جميعا كتاب قصة بكل المقاييس.

وهنا نصل إلى مأزق الاختيـار، وهو مأزق تورطت فيـه شخصيا، وأصبحت مسئولا عنـه، ولا أملك غير ذلك! ولابد أن أتحمل سخط من لم يحصل على جـائزة، ولابد أن يحتج من لا يجد قصتـه منشورة فى هـذا الكتاب ولا يحصل على الجائزة. وربما كـان الأفضل للنجـاة من هذا المأزق أن يظل اسمى مجهولا، لأتخلص من احتجـاجات طبيعية، ومزعجة لا مفر منها!

ولقـد حاولت أن أضع معيـارا لـلاختيار نتفق عليـه، لكنى فشلت فشلا ذريعا، إذ أين نجد معيار النقد الذى يتفق عليه الكتاب أو النقاد. ومن الـذى يملك أن يقول أن أسلـوب هذه القصة هـو الأفضل، أو أن هـذا النوع من السرد هـو النمـوذج، بل من يستطيع أن يـرشدنـا إلى

الحدود الفاصلة بين القصة والرواية القصيرة، أو بين القصة وقصيدة الشعر أو المسرحية أو التحقيق الصحفى!

حطمت التيارات الأدبية كل الحدود والقيود والسدود منذ اجتاحت عالم الثقافة منذ الحرب العالمية الثانية فى منتصف هذا القرن العشرين الذى يحتضر الآن فى سنواته الأخيرة. كل شىء أصبح مباحا فى الابداع بعد أن كان مباحا فى الحرب والحب! وانطلقت المصطلحات كالصواريخ فى سماء الابداع. سيريالية وعبثية وشكلية ووجودية فلما اعتاد الناس عليها ظهرت الحداثة ثم ما بعد الحداثة، والبنيوية التى هللوا لها ثم هجروها ليتحدثوا عن «التفكيكية»، فمشاريع البناء تحولت إلى مشاريع هدم وتفكيك. وكل مصطلح من هذه المصطلحات وراءه جيش من النقاد دبجوا آلاف المقالات والكتب، ولو كنت أتبع مدرسة وأتبنى مصطلحا من هذه المصطلحات، ما كنت - فى تقديرى - كتبت قصة أو رواية واحدة!

ولذلك يختلف حديثى عن القصة عن أى حديث آخر، فأنا لا أكاد أعرف مسبقا ما الذى سوف أكتبه عندما أشرع فى كتابة قصة أو رواية. قد تكون لدى أفكار وخواطر ومجموعة من انطباعات وردود أفعال لمواقف صعبة صادفتنى، أو تحديات على المستوى الشخصى أو العام اعترضت حياتى. لكن كل هذا يظل يحوم حولى، قد يثيرنى وقد يستفزنى، يقلقنى أو يؤرقنى لكنه لا يتحول إلى عمل أدبى - قصة أو رواية - لأنى عندما أشرع فى الكتابة وأمسك بالقلم، وتتحرك يدى فوق الورق — الآن أحاول الكتابة بالكمبيوتر وبالضغط بالأصابع! أدخل عالم الكتابة، وأخرج فى نفس اللحظة من تجارب الواقع وتحدياته، بما فيها تجارب الحياة والموت، لأنى أسافر رحلة الفن والخلق فلا أكاد أعرف ما سوف أتعرض له من مفاجآت، وما سوف يقابلنى من كائنات لا أعرف كيف أحددها، لكنها تطرح

على خيالات ورؤى، وتطرح أسئلة كالألغـاز لا أتوقعها، فإما أن أجيب وأواصل الـرحلة، أو أخفق فتنتهى الـرحلة بـالاخفاق والاحبـاط، أما تجارب الواقع وتحدياتـه، والخبرات التى اكتسبتها، فهى ليست أكثر من أوراق جواز السفـر الذى به تأشيرة العبور الى عـالم القصة. وهو عالم لا صلـة له بـالأسباب التى دفعت إليـه، فغير صحيح أنى أسجل مشـاعر قـديمـة مكبوتـة أو أسطـر كلمات على الورق هى اعترافـات ومواجهـة مع النفس، أو محاولة للتخلص من تصرفـات ضايقتنى أو أزعجتنى. كما أن كتابـة الأدب الصحيح ليست للانتقـام أو التشفى، أو للهرب من مـواجهة مخاوف أو السيطرة عليها، وقـد يتحدث النقاد فى هذه الأمور، ويختلفـون أو يتفقون، ويسترشدون بفرويـد للغوص فى أعماق الكـاتب أو أعماق النص. أو يسترشـدون بماركس لتحـديـد الصراعات وتفسيرها وتبريرها. وقد يحلقون فى طائرة لمشاهدة النص الأدبى من خـلال المنظر العـام للبيئـة التى ظهـر منها. لكن الحقيقـة بـالنسبة لى، هى أنى لـو حملت معى إلى عـالم القصة، أيـة مشاعـر شخصيـة، وأية انفعـالات من عـالم الـواقع، فسوف تتعطـل الكتابـة وتفسد، لأن حـراس الفن القصصى لن يسمحوا لى بـالمرور من عالم الواقع إلى عـالم الابداع. وغـالبا مـا اضطر للتظـاهر بـالبراءة، وبمكر أقـرب إلى مكـر الأطفـال، وكأنى فى رحلـة للعب، قبل أن يسمحـوا لى بالدخول.

وبديهى أنى لا أستطع الكتابة وفى رأسى طنين السلطة، كأن أكتب ليرضى الـرقيب عن القصة، أو لأحصل على جـائزة، رغم أنى حصلت على جوائز! ـــ كما لا أتصور كتـابة قصـة لأهاجم فـلانا بـالذات أو لأروى قصة فلان، كما شاع أنى كتبت رواية الرجل الذى فقد ظله عن محمـد حسنين هيكل، أو أن عبدالهادى النجـار فى « زينب والعـرش» هـو مصطفى أمين، أو أن أحمد عبـدالسلام ديـاب، هـو كمال رفعت

عندمـا تولى الاشراف على أخبـار اليوم فى فترة تنظيم الصحـافة. وإذا كـان هنـاك وجـه شبـه، فـذلك لأن الخيـال القصصى يتحـرر من الوقائع، لكنه يكشف ـ ولا أدرى كيف يحدث هـذا ـ عن جوهر الواقع. وهو أقوى مـن الوقائع وأصدق فى تصـوير جوهر العـلاقات، وعندئذ يكمل القارئ ـ من عنده وبخيالـه الشخصى ـ رؤيته التى يستوعب بها جوهر الواقع.

ولقـد كـان رأيى دائما، ان الـذى يـريـد أن يكتب داعيـا لمواقف سيـاسية يـؤمن بها، عليـه أن يكتب مقـالات سيـاسية أو اجتماعيـة واضحة، ولـذلك حرمت نفسى لست سنوات من كتـابة أى عمل أدبى طوال فترة رئاستى لدار التحريـر، ولا أدرى ماذا يقول النقاد فى ذلك، ولكنى أشعـر أن من واجبى أن أشرح موقفى للـذين شاءت الظـروف أن أختـار عشرة قصص من بين قصصهم، لأنى لا أملك إلا أن أكـون ما أنـا عليه، ولا أستطيع أن أجـارى النقاد وهـم يفسرون ويشرحون، ويعيدون تـركيب الكلمات والجمل، ويدخلون الكـاتب أو النص الذى كتبه فى قوالب مجهزة لاختبار نظـريات ومناهج فى النقد. وفى رأيى أن مجرد الاحساس بوجود مثل هـذه القوالب يكتم أنفاس الكاتب ويكتم حيـويـة النص الـذى يكتبـه، ومن حسن الحظ أن النقـاد يختلفـون ويخرجون علينا كل يوم برؤية جـديدة. ولقد حاولت ذات مرة أن أقنع أحد نقادنا الكبار بأن المهم هو العلاقة المباشرة بين الكاتب والقارئ، فأدهشه جهلى بنظـريات النقـد، وقال ان النقد هـو الجسر الذى يعبر عليـه القارئ إلى الكـاتب، أو الكـاتب إلى القـارئ. فقلت له ان كلمـة «جسر» فيها مبـالغة، وربما كلمـة «التعريف» أصح وأصـدق. فكبار النقاد يتولون عملية تعريف القـراء بالمواهب الابداعية وبعد ذلك يملك المتلقى حـريتـه المطلقـة، ليرى العمل الابـداعى كما يشـاء، والنـاقـد الانجليزى «جـونسون» اكتشف لـلانجليز شكسبير لكنـه لم يفرض

عليهم رأيــه فى شكسبير، والنـاقـد الفــرنسى «رينــان» قــدم لنــا «تــورجينيف» الروسى فـرفض أن يحدد ملامح معينــة له، وقــال أن «تــورجينيف» مــوهبتـه أكبر من أن تكـون لــه شخصيـة محددة، و«ســانت بيف» قـدم لى بلزاك الكـاتب الـروائى والصحفى والـرجل الذى يـرتدى «الروب دى شامبر» والـدكتور طه حسين الناقـد قدم أبـا العلاء المعـرى واكتشف الأديب توفيق الحكيم.. وبعـد أن استمع الناقد الكبير لكلامى، هز رأسه وقـال ان ما سمعه هو «نظرية» أخرى من نظريـات النقد، لأنه لا مفر مـن الخضوع لنظرية نقـد! فاعترضت وقلت له محتدا فى غيظ أنه يدافع عن وظيفته!

موت المؤلف.. وموت القارىء !!

ويبدو أن بعض النقـاد ضايقـة مواقف ممـاثلة من الكتــاب الذين يصرون على وجودهم وعلى اللقاء بالقارىء مباشرة. ولا يهتمون كثيرا بما يقـوله النقـاد. فأعلنوا أن الكـاتب الـذى يسعى مباشرة للقـارىء لا يقدم نصــا أدبيا، بل يقـدم سلعة يبحـث لها عن مشتر. فهو تـاجر وليس مبـدعا. وضربـوا الكاتب ضربـة قاضيـة فأعلنوا أن النص هـو المهم. بدلالــة لغته أو دلالة صراعـاته الطبقية. والكـاتب بعد أن ينتهى من كتابة النص لا معنى لتدخله ووصل الأمر بهؤلاء النقاد إلى إعلان موت المؤلف. مات وشبـع موتا غير مأسوف عليه، بعـد أن ترك النص الذى يستولى عليه الناقد ويفعل به ما يشاء.

كان مـوت المؤلف عــلاجا ناقصــا. فهناك القــارىء الذى يتـدخل ويعلن رأيه، وكـل قارىء عالم بـذاته، يقـرأ على هواه ويفسر مــا يقرأه كما يشاء. وهذا يعارض تماما النظـريات التى ينادى بها النقاد، وهى أحيانا نظريات سياسية يحميها رقباء . وهى أحيانا نظريات للكشف عن حالــة المجتمع ويتولى تطبيقهـا أساتـذة أكاديميـون يعملون فى أجهزة المخابـرات، ويدرسـون النصوص الابداعيـة فيما يشبه عمليات

التحليل التى يقوم بها الانسان فى المستشفى ليعرف حالته الصحية.. وهكذا ارتبط النقد بالسلطة وبالرقابة وبوسائل السيطرة والهيمنة على المجتمع، ومعرفة مجتمعات الجيران والأعداء. وانعزل النقاد عن القراء، وأعلنوا أن القارىء مات!

وهكذا استولى النقاد ومن ورائهم أجهزة كثيرة فى السلطة على النصوص الأدبية، وعزلوها عن المؤلف الذى «ارتكبها» أو«القارىء» الذى يمارس خطيئة التفكير فيها وحده!

المؤلف مات والقارىء مات، وعاش ناقد النص الذى يكتب التقرير عن الوثيقة التى فيها أسرار اللغة والمجتمع. ولاشك ان هذا الذى كان يحدث فى أوربا شرقا وغربا تأثر به بعض نقادنا وبعض الدارسين فى جامعاتنا المصرية فأمسكوا بأعمالنا وفرضوا عليها ما قرأوا من نظريات. أحد الدارسين حصل على الدكتوراه من بحث فى السرد الروائى ورواية الرجل الذى فقد ظله كنموذج. فبدأ بأن أدخل الرواية فى قالب «الرواية الاشتراكية» ثم اضطر أن يكتب فى أكثر من عشر مناسبات أن الرواية «الاشتراكية» ليست اشتراكية وتخرج عن المألوف فى الرواية الاشتراكية، لكنها لابد أن تكون اشتراكية! وهناك من كبار النقاد من ضحك وسخر من هذه المحاولات، لكنى قلت لنفسى أنى لست مستعدا ــ ولا أستطيع أن أصنف القصص التى سوف أختار من بينها حسب قوالب ونظريات، وقررت أنه ليس أمامى إلا القراءة، والعلاقة المباشرة بينى وبين النص كقارىء ــ لاكناقد ــ بمعنى أن أترك نفسى على سجيتها تجذبنى الكلمات والجمل للقراءة فأشعر بالرغبة فى مواصلة القراءة، أو لا تجذبنى فأشعر بالملل فلا أواصل القراءة. وأعترف أن اللغة وإيقاع الكلمات وسلاسة السرد من العوامل التى تشجعنى على القراءة.

معـــارك قديمـــة

وتختلف اللغة فى القصـة عن لغة التخاطب العادى، وهـذه وجهة نظـرى، ولا أستريح للابتـذال والركـاكة، وتعجبنى حيـوية الايقـاع، وأعرف أنـه ليس من السهل أن يضـع كاتب القصـة حدا فـاصلا بين اللغة الدارجة أو اللهجة العـامية واللغة الأدبية، لكنه يحاول ويتحمل مسئوليـة المحاولة، فى اختيـار الكلمات المناسبة التى هى عـلامة على الحس المرهف والـذوق السليم. وفى تـاريخنا الأدبى أحـداث جســام ومعـارك كبرى حول اللغـة، لا نستطيع أن نتجـاهلها، ومن أهم هـذه المعـارك، مـادار بين الـدكتـور طـه حسين والأديب الكبير مصطفى صـادق الـرافعى منـذ حـوالى سبعين عـامـا على صفحـات جـريـدة السياسـة، إذ كتب طه حسين يتهم أسلوب الـرافعى بأنه «نقص أدبى لأن الكمال الأدبى يستلزم أن تكـون اللغة ملائمة للحيـاة، وهو نقص خلقى لأنه كذب.. كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه»!

وكلمات طه حسين قـاسية، وكـان الرافعى يكتب بأسلـوب القرن الرابع الهجرى، ويختار ألفاظا براقـة تتوهج بذاتها وبحروفها، وكان يهتم بزخرفة الأسلوب، وينفر من التبسيط، ويرى أنه آفة انتقلت إلينا من الأساليب الأفرنجية ـ الانجليـزية والفرنسية....الخ ويرى انها قد تفتن النـاس فينسـون لغـة القـرآن الكـريم ولا يستطيعـون تفسير الأحاديث النبوية الشريفة. وكـان الرافعى يحارب ويرد على طه حسين بقسـوة ويتهمه بأنـه الرجل الـذى فتنتـه فرنسـا وجاء لينشر الفتنـة الأجنبيـة فى اللغة العـربية، وكـان يقـول لطه حسين.. ألم يأتك قـول المتنبى..

وكـم مـن عائب قـــولا صحيحا

وآفتـــه من الفهـــم الســـقيم !

وكـان مسرح المعركـة بين طه حسين والـرافعى هو القصـة، لأنها

جنس أدبى جديد وافد من أوربا، وهى غير الحدوتة أو النادرة أو الأقصوصة، كما وردت فى كتب التراث، وكانت التقاليد لا تسمح بتصوير علاقات انسانية متشابكة بين أفراد، رجال ونساء، فى قصة مميزة يقرأها القراء وحدها، خارج الاطار الذى تدخل فيه النوادر والأقصوصات سواء فى ألف ليلة وليلة أو الأغانى أو المحاسن والأضواء أو الأمالى أو غيرهم. ولذلك وجد محمد حسين هيكل حرجا شديدا فى كتابة اسمه كمؤلف لرواية زينب عندما نشرها عام ١٩١٤. فكتب لمؤلفها «فلاح مصرى» بعد أن أيقن أنه لا يستطيع أن يمارس مهنة المحاماة بعد أن درس القانون فى باريس، ثم يشتهر بين الناس بأنه يكتب قصة عن امرأة اسمها زينب، ويهتم بها فيجعل من اسمها عنوانا لكتابه، فهذا أمر مخل بالوقار المفروض فى محام يدافع عن حقوق الناس وأعراضهم أمام المحاكم.

وروى المازنى أنه كان بمكتب هيكل فى جريدة السياسة عندما دخل عليهما شاب معمم وسأل فى خجل وارتباك عن كتاب «زينب هانم»؟ لأن الشاب الأزهرى وجد حرجا شديدا فى النطق باسم المرأة بغير أن يضيف كلمة «هانم» ليضع حاجزا أو نقابا بينه وبين زينب! هكذا كانت التقاليد فى ذلك الوقت. وكانت القصة «فتنة طارئة» وأسلوبا معيبا، شديد التبسيط، والتركيز على ما يفسد أخلاق الناس وعقولهم. ولو كان هيكل كتب كتابا فى الأدب أدخل فيه قصصا وأشعارا وتأملات، بحيث لا تبرز قصة بذاتها وينسجم الجميع ـ النثر والقصص والأشعار والطرائف ـ فى النسيج الزخرفى المعروف فى تراثنا الأدبى، ما كان هناك خجل أو عيب.

ودافع المازنى عن «زينب» وتساءل بأى لغة نكتب الحوار ـ كان ذلك منذ سبعين عاما ـ وقال المازنى «الجواب عندى أن نكتب باللغة العربية إلا إذا كانت اللهجة العامية أعون على تصوير الشخصية

وأبرزها على حقيقتها.. ثم قال المازنى أن للغة تأثير فى أسلوب التفكير والتفاتات الذهن واتجاهات النفس، فابن الصعيد والمنوفى والبحيرى، ليس تفكيرهم على نسق واحد مهما بلغ تقاربهم، فإذا أسقط الكاتب اللهجات العامية جملة، فإنه يسقط معها عاملا قويا من عوامل التوجيه النفسى ويجىء بالصورة ناقصة ألوانها غير قادرة على الكشف عن الشخصية.

وكتب محمد حسين هيكل يدافع عن لغة «زينب» عندما أعلن أنه كاتبها «الفلاح المصرى» فقال.. اللغة كساء الأدب، وهى تتطور كالأزياء فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والتنتلات وتحملها الأحذية المرصعة، وتكسو أعلاها شعور مستعارة، وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مختف تحت الأصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها.. وصارت الحياة الانسانية هى موضع الجمال بذاتها، وليس موضع الجمال هو اللباس الذى يكسوها.

وكان المازنى جريئا فكتب مجموعة من القصص القصيرة فى مجلة السياسة ولم يتردد فى أن يسجل الحوار بلهجة عامية، بل انه كتب فى إحدى قصصه الحوار بلهجة رجل يونانى ضبط متلبسا بالسرقة ويحاول أن يتكلم بالعربية..

واندلعت معركة اللغة فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ عندما نشر أحمد أمين سلسلة من المقالات تحت عنوان «تجديد الأدب» جاء فيها أن فى عصرنا الحديث نشأ قوم تأثروا بالأدب العربى القديم وحذوا حذوه، ولو خرجوا قيد شعرة منه، فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير، وإذا استهلكت السيارة البنزين قالوا «رعت السعدان» أى رعت الجمال، وإذا لم يكن لهم من الأمر شىء، قالوا لا

ناقة لنا ولا جمل وهم فى الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل.

ورفض الدكتور عبدالوهـاب عزام دعوة أحمد أمين للتبسيط وقال انها تؤدى إلى تمييع الأخلاق بينما المفروض هو أن يتعود الشباب على الخشـونـة والصلابـة وذلك يتحقق بـالتعـود على الألفاظ العـربيـة الخشنة!

وعندما اشتركت فى مناقشـة اللغة فى الخمسينيات، كان الجدل بين العـاميـة كـاتجاه يسـارى والفصحى كـاتجاه يمينى أو رجعى.. وأرسل لى الدكتور عبدالوهـاب خطابا من نيودلهى وكان سفيرا لمصر فى باكستـان، يعاتبنـى لأنى استشهدت بـرأيه ضـد أحمد أمين، وهذا لا يجوز ــ مـن وجهـة نظـره ــ لأن أحمد أمين تـوفى الى رحمة الله! (نصيحة سومرست موم!)

●●●

تذكـرت هذا التـاريخ ـ والحديـث فيه يطول ــ عند استعـراضى للقصص لأختـار من بينها، وسـألت نفسى مـاذا يكون الحال، لـو أن هيكل والمازنى وطه حسين وأحمد أمين كرواد خاضـوا معركة تحرير التعبير بالكلمة وحققـوا فيها نجاحا كبيرا؟ وسـألت نفسـى ماذا يكون الحال لو أن غيرى هـو الذى قام بـالاختيار، وبيننـا فى مجتمعنا حتى يومنا هذا من يرى أن القصة فتنة، أو يرى أن اللهجات العامية ليست أدبـا بل انحلالا وميـوعـة، وبيننا من ينفـر من الـذوق والحساسيـة الأوربية، وبيننا من يرى القصص وثائق وتقارير عن المجتمع وبيننا من يهتم بالنص ويعلن موت المؤلف أو مـوت القارىء أو كلاهما. ولو أردت أن أعـدد الاحتمالات مـا تـوقفت لأنها غير محدودة، ولابـد من احترام تعدد الآراء، والاتجاهات، ولابد ـ أيضـا ـ أن أنوه بأن اختيارى للتحكيم فى هذه القصص لابد أن يكون له تأثيره المباشر. ولقد حاولت ـ بقدر الامكان أن أشرح بعض ما فى نفسى نحـو عملية الكتابة واللغة،

ولا أجد أمامي في نهاية الأمر إلا أن أختار ما كان أكثره تشويقا ـ نسبيا ـ وما جعلني أواصل القراءة بغير ملل منذ السطور الأولى.

وأذكر بهذه المناسبة حكايتي مع الروائي العالمي المعروف سومرست موم.. وقد قابلته في الخمسينيات ـ عام ١٩٥٤ على ما أظن ـ في جناحه الخاص بفندق سميراميس المطل على النيل. وكنت مبتدئا في كتابة القصة القصيرة ولم أكتب الرواية بعد.. ودار بيننا حوار حول القصة بعد أن وجه الى سؤال عن أسلوبي وكيف أكتب القصة. فلما استمع الى، صاح مستنكرا ما سمعه وقال.. هناك رجل واحد في العالم أيها الشاب يستطيع أن يكتب بالأسلوب الذي تتحدث عنه، وهذا الرجل اسمه «انطوان تشيكوف» وأنت بالقطع أيها الشاب لست انطوان تشيكوف! واختلفت معه. شاب مبتدىء يعاند عجوزا مخضرما وهو غالبا ما يكشف عن صراع حياة أو موت لكليهما. بين رغبته في إثبات الذات ـ رغبة تحافظ على الذات وتصونها من تمرد القادمين الجدد. ومع ذلك استمعت الى واحدة من نصائح موم مازلت أثق فيها، وهي أن القصة لابد أن تجذب الانتباه، ولو كنت تحكي القصة بين ناس حول مائدة طعام شهي فلابد أن تجذبهم وتلهيهم عن الطعام ليتابعوا القصة، ومازلت أبحث عن هذا التشويق بين الكاتب والقارىء وأرى أنه حجر الزاوية في بناء العلاقة بينهما، وأن عملية الابداع لابد أن تكمل ـ كما يقول نيتشه ـ بوجود شاهد. كما أن عملية الخلق عند الله عز وجل اكتملت بوجود الشهود الذين يشهدون على الخلق ويعبدون الخالق.

مزاج شخصي.. ولكن !

وتختلف درجة التشويق في القصص التي وقع عليها اختياري، ولكنها كانت أكثرها تشويقا، وقد يجد غيري ـ من كبار النقاد ـ أعمالا امتازت بكثافة الأسلوب وتراكم المشاعر والصور في جمل مركبة، وقد

يجد آخرون قصصا لها دلالات ايديولوجية يفضلونها ويبحثون عن أهمية النـص فى دلالته السياسيـة والاجتماعية، وليس فى التشـويق ـ لكن كل هذا ـ بصراحة تـامة ـ لم أتـوقف عنده لأن القصـة عندى فى المقام الأول حكاية أو حدوتة تشدنى إلى قراءتها. ومع ذلك تبينت بعد أن أكملت عملية الاختيـار انها شملت أنواعا وأساليب متعـددة. بينها القصـة الأقرب الى الشعـر، والقصـة الأقـرب إلى المقالـة الصحفيـة السـاخـرة، والقصـة التى لها حبكـة، والقصـة التى تعبر عن لحظـة تنـويـر أو فهم. أو شـعـور خـاص فى زمـن معين ومـكان معين. والقصـة التى تـدخل بنـا عـالم الأحـلام أو الكـابـوس، أو التيـه أو المطاردة، فـلا تخرج منه. وكـذلك اختلفت اللغة واللهجـات وتعددت، ولكنهـا جميعا شجعتنى على القـراءة ولاشك أن مـزاجى الشخصى كقارىء كان له تأثيره، وهـو مزاج قد يتغير بعد فترة تطول أو تقصر، وكثيرون يتهمـوننى بأنى صاحب مـزاج متقلب. لكنـه على أية حـال مزاج كاتب يحب كتابة وقراءة القصص والروايات!

فتحى غـانم

مثل قزم وسط عماليق ، يقف بـرج الحمام القديم .. تتطلع عيـونـه الكثيرة بـدهشـة وتـوجس إلى الأبـراج الشـاهقات من حـولـه ، تعلوهـا أطباق مقعـرة كبيرة ، تشرئب نحـو شتى الجهـات ، وهـوائيـات استقبـال ، ومكيفـات هواء تبرز مـن الجدران .. يبدو بـرج الحمام كنصب شـاذ ينتأ من سطح البيت العجـوز ، القـابع مستوحشا ، جافلا ، عليه غربة وسهوم الأشياء القديمة.

يطوف إبـراهيم بطلول الحديقـة فى الصباح ، مثلما يفعل كـل يوم منذ رجع من السفـر .. يتحرك كـدمية حول كـوخ بقاع واد ، تحاصره الجبال العمـلاقة وتكاد تطبق عليه .. يشـاهد شجيرات الطماطم التى زرعهـا بيديـه فى الحقل الصغير وشجرة الـرمان العـارية الفـروع .. يحدق فى شكل تخلف عن سقوط طبقـة البياض ، وفى الشروخ ، جراح البنايات القديمة ، التى تزيدهـا الأيام عمقا واتساعا .. يتأمل الأحجار الجيريـة الرطبـة ، أساس البيت ، ومن فـوقهـا قوالب الطـوب النيىء الآخذ فى التحلل والتآكل .

ارتقى إبراهيم فى الدرج الخشبى إلى السطح .. راح يهدهد بين يديه الصينيـة النحـاسيـة ذات الحافـة المنقـوشـة ، وينثـر الحب ، وعلى وشـوشـات الحب يقبل الحمام .. تحط على كتفـه حمامـة ، وأخـرى تصطفى قمة رأسـه مهبطا .. تصطفق الأجنحة الفـرحة وتصطخب .. يلقط الحمام من الأرض ، ومن كفه المبسـوطة بـالحب والحب .. ينثال الماء إلى الـوعاء الخزفى ، وينهل الحمام ، وينـزل كى يستحم .. ينفش

ريشــــــــه نشوان وينتفض .. يرقد باسطا الأجنحة لضوء الشمس ، وتأتلق الرقاب بألوان الطيف .

أسند إبراهيم السلم الطويل إلى برج الحمام ، وصعد يتفحص العيون .. نزل وفى عينيه فرحة طفل .. أحضر الخشب والمسامير ، وشرع يسد فروج حجرته الخشبية التى أقامها على مقربة من الفرن المتشقق الخامد منذ زمن طويل .. أطل من نافذة الحجرة على برج الحمام ، ينصت إلى الهديل ، ويشاهد طقوس الغزل .. استلقى على ظهره فوق السجادة البالية ، وأخذ يشاهد السماء من كوة السقف ..

« ما تزال تجثم فوق صدرى السحابة القاتمة ، المشبعة بدخان النفط المحترق ، ودخان القذائف والقنابل ، وغبار البنايات المتهاوية .. لازمتنى طوال رحلة العودة .. لماذا تطاردنى ولا تريد أن تزايل سمائى؟!»

تحول إلى مشاهدة الحمامة الغريبة الوافدة .. راعه وجود حلقة معدنية حول ساقها .. كانت تقف على حافة النافذة فى ألفة مثيرة للدهشة .. لحق بها ذكر بلون «نوار الفول» .. يناغيها .. يدنو منها منتفخ الصدر هادلا .. استجابت لنداء الحب بعد قليل صد وتدلل .. أخذا يتوشوشان ، ثم رقدت مستكينة ، خافضة جناحيها ، وارتعشا من نشوة .. لم تجفل الحمامة الوافدة أو تنفر من يد ابراهيم المتدانية.. استكانت فى راحتيه ، وفحص الساق .. كانت الحلقة المعدنية تنغرس فى اللحم ، يحوطها ورم طفيف .. حاول انتزاعها فتألمت الحمامة .. كانت الحلقة قد اندمجت وصارت جزءا من تكوين الساق .

نثر ابراهيم وجبة اليوم الأخيرة للحمام قبيل الغروب ، وبينما كان يحدق فى الأبراج ، وقعت عيناه على سيدة تتمدد على مقعد باحدى الشرفات ، وقد انحسر الثوب كاشفا عن ساقيها البضتين ، وعلى الرغم من اغضائه السريع ، فقد بدا عليه الاضطراب والخجل ، فهرول نازلا

لاقى جيهـان ابنة شقيقتــه أمام الباب .. كـانت تحمل كتـابا ودفـاتر وتتـدلى من كتفهـا حقيبة .. سبقتـه إلى الـدخول صـامتـة . دخل على شقيقته الجالسة على أريكـة الصالة العتيقة فى مواجهـة الباب ، ترتق ثوبا بيدها ، وقد أرتدت جلبـابا داكنا ، وعصبت رأسها بمنديل أسود ، يلوح من تحته بعض الشعر الأبيض .. قال لها فى فرحة :

— الحمام يتكـاثر .. فى كل عين من عيـون البرج حمامة راقـدة .. هناك بيض كبير على وشك الفقس .

ابتسم وجهها الشاحب :

— لابد أن الحمام المهاجـر قد آب إلى برجه القـديم ، بعد أن أحنس بالأمان .. منذ رجعت من السفر يا ابراهيم ، وأعداد الحمام تزيد .

التفت شقيقـه محسن الذى يتـابع مباراة كـرة قدم فى تليفـزيون صغير مشوش الصوت :

— هذا ليس زمن الحمام .

ارتفع صوت جيهان التى تغير ملابسها فى الداخل :

— خالى وماما ليس لهما سيرة غير الحمام ، وشجـرة الرمان التى لم تعد تورق ، وحقل الطماطم !

برز وجـه شقيقه محمود من بـاب الحجرة الجانبية ، وهـو يسده بمرفقيه

— أتظن أننـا يمكن أن نجمع ثـروة من تـربيـة الحمام ، وزراعـة الطماطم فى الحديقة ؟

جال ابراهيم بنظراته بين شقيقيه ، وجيهان :

— لماذا تكرهـون الحمام ؟! كانت أمكم تحبـه ، وتراه فى منـامها .. وجاءت من القرية تحتضن زوجـا من الحمام ، تكاثر ، وصار أسرابا ، تحلق فى السماء ، وتـرفـــرف على البيـوت والجيران الطيبين .. الحمام

موجود فى هذا البيت قبل أن توجدوا أنتم ، وكان البرج معلما من معالم الشارع ، وكان الناس يسترشدون به ، ويسمون بيتنا بيت الحمام .

صاحت جيهان :

— وأين تلك البيوت ؟ وأولئك الجيران الطيبون ؟ ألا ترى الأبراج الجديدة ، وسكانها الذين يركبون السيارات ، ويمشون على السيراميك ، ويعيشون فى الحجرات المكيفة ؟ أنا أخجل من برج الحمام ، ومن هذا البيت ، أمام زميلاتى فى الجامعة .

أسكتتها نظرة من أمها .. ورنا ابراهيم إلى شقيقته مستهديا بعينيها مستأنسا :

— كريمة .. سيعود بيتنا كما كان بيت الحمام ..

أجابت بصوت تخامره ارتعاشات الشك :

— الحمام بخت يا ابراهيم .. ألم تكن تسمع أمك تقول : عايز بختك يبان ، هات لك جوز حمام !

●●●

كان مستغرقا فى تأمل السماء من كوة السقف .. انتفض على صرير باب الحجرة .. انحنى القادم ، وسد جسمه الضخم فراغ الباب .. كان يرتدى سويتر قرمزى اللون ، وكوفية مزركشة تلتف حول عنقه الغليظ ، ويحمل منظارا مقربا .. قال انه ضابط شرطة متقاعد ، وأنه من هواة تربية الحمام . تركزت عينا ابراهيم فى حذاء الرجل الذى كان يجول بنظراته فى انحاء الحجرة .. خرجا معا إلى السطح كطلب الرجل .. أشار إلى برج شاهق فى شارع خلفى بعيد .. مد يده بالمنظار إلى ابراهيم :

— أنا اسكن هناك .. بالطابق الخامس عشر .. يمكنك رؤية كل شىء إذا أحسنت توجيه وضبط المنظار ..

وضع ابـراهيم المنظـار أمام عينيـه وصـوبـه نـحو البرج البعيـد ، مستعينا بإرشادات الرجل :

— أظنك ترى العشة الآن بوضوح ؟

— أي عشة ؟!

— عشة الحمام !

— أرى قفصـا مثل أقفـاص الوحـوش .. أمتأكـد أنت أنك تـربى الحمائم لا الصقور والجوارح ؟

ضحك الـرجل .. قـال ان الحذر واجب وأعداء الحمام كثـر .. أخبر ابراهيـم أنه يضـع الحمام فى عشـة صممها بنفسـه ، تتوافر فيهـا كل ضمانات الأمـان ، فقد جعل لها قضبانا مـن الحديد ، يكسوها حـاجز مزدوج مـن سـلك متين ، وتغلق بـواسطة عـدة تـرابيس قويـة وقفل كبير .. وقال :

— إنها لا تسمح بدخول نملة ..

— أعتقد أنها لا تسمح بدخول الهواء أيضا ..

ضحك الزائر ، وأبـدى دهشته لترك ابراهيم حمامه طليقـا .. حدق ابراهيم فى عصفورين بقفص فى إحدى الشرفات :

— لم يخلق كل ذى جناحين للأسر ..

ثم نظر إلى الأبراج :

— ألا يكفى الحمام هذا الحصار ؟!

حملق الرجل فى نهدى المرأة المترجرجين أمامها ، وهى تميل وتنشر الغسيل .. وتقبض عليه بمشابك ملونة ..

— ماذا تقول فى لحم الحمام ؟ إن له شهـرة واسعة فى بعث الطاقة وإثارة النشاط .. كيف لم تتزوج حتى الآن ؟!

حدق فى الرجل مشدوها ..

— لم أذق فى حيـاتى لحم الحمام ، ولا أشتهيـه ، ولا أطيق رؤيـة حمامة تذبح أمامى ..

— لماذا تربى الحمام ؟! لتبيعه إذن ؟

— ليتكاثر ويملأ الفضاء ويحجب سحابات الدخان !

— هواية لمجرد الهواية .. تسلية .. وقت فراغ !

طال الصمت بينهما .. وقال الضابط ..

— أظننا تعـارفنا إلى حـد ما يـا أستاذ ابراهيـم .. لا تعجب .. لقد جمعت بعض المعلومات القليلة عنك قبل مجيئى .. هذا ضرورى جدا .. مع الأسف .. لا أحـد الآن يعــرف الكثير عن أحـد ! جئت لكى استرد حمامة هاربة .. فى رجلها حلقة معـدنية ، محفور عليه أول حرفين من اسمى .. أظنها دليلا كافيا ؟!

وأخبر ابراهيم أنـه ابتكر الحلقات المعدنيـة وسيلة يستدل بها على حمامه إذا لزم الأمر ..

— الحمامة عنـدى منذ بضعة أيام ، وقـد صار لها ألف ، واتخذت فى البرج سكنا ..

— أعرف فى أى العيـون هى ، ومتى جاءت إليك بالتحـديد .. كنت أراقبهـا بمنظارى ، وكنت متأكـدا أنها ستأتى إلى هنـا بعـد اختفائهـا يـومين ، فـالحمام يغوى بعضــه بعضـا ، وكـان يجب أن أصبر حتى تستقر فى البرج تماما .

— وهل تعرف أنها ترقد على بيضتين ؟

لم يبـد عليـه الاهتمام ، وسألـه ابـراهيم كيف استطـاعت الحمام الهروب على الرغم من احتياطاته الأمنية المنيعة ؟

أجاب فى شىء من الحنق :

— ربما وجدت بين الحمام فـردا مارقـا .. متمردا .. أحيـانا أتـرك

باب العشة مفتوحا دون أن تجرؤ على اجتيازه حمامة ..

— اعتاد حمامك الأسر ، وصار مشلول الأجنحة ..

عرض ابـراهيم على الضابط تـرك الحمامة مع الفهـا فى مقابل أول زوج يأتى من نتاجهما .. رفض الضـابط بإصرار ، وطلب من ابراهيم أن تعيش الحمامة وزوجها فى عشته بنفس المقابل ..

صاح ابراهيم ملتاعا :

— لا .. لا !!

صعد الضـابط إلى البرج ، وأمسك بالحمامـة ذات الحلقة المعـدنية بالساق .. كانت تئن وتتململ فى قبضته ، وقـد اعترتها حالة غريبة من الفزع ..

— حمامك من نـوع أصيل يا أستـاذ ابراهيم .. مارأيـك أن نتبادل المعلومات والخبرات مادام لنا نفس الهواية ؟

لم يجب ابراهيم ، واستوقف الرجل على الدرج الخشبى :

— أرجوك لا تصوب منظارك ناحيتى بعد ذلك .

نزل الرجل وهمس ابراهيم فى حيرة :

— لماذا لا أسمع وقع أقدامه على الدرج !

●●●

جمع الأغصـان اليـابسة من الحديقـة ، وصعـد بها إلى السطح .. كانت كـريمة قـد فرغت من ترميم الفـرن بالطين ، ونظفتـه استعدادا لشى السمك . تأججت النـار ، وجلس ابـراهيم بجوار شقيقتـه ينشق الـدخان المتصـاعد وقـد غيبه انتشـاء : «دخان أمى الطيب .. دخـان الخبـز ، تخامره رائحـة العجين والخبز السـاخن .. دخان الشـواء .. دخان الأخشاب والقـوالح المحترقة ، وقد اجتمعنا حـولها فى ليلة شتاء باردة .. »

انتبها وأرهفا السمع لوقع أقدام متسارعة تصعد الدرج الخشبى.. وقفت جيهان تحملق فيهما لحظات..

— ماذا تفعلان؟!

استدارت وأجابت باسمة:

— خالك يريد أن يأكل السمك مشويا فى فرن جدتك.. سأصنع لك فطيرة، وسأعمل لك عروسة من العجين كما كانت تفعل أمى.

عبست جيهان وهرولت نازلة..

سأل ابراهيم شقيقته ، وقد افترشا الأرض ، وأمامهما السمك المشوى:

— هل احتفظت بنصيب محمود ومحسن..

أجابت : نعم.. ورفضت جيهان أن تشاركهما الطعام، وانفجرت بعد صمت:

— لقد كنتما فرجة لسكان الأبراج وأنتما أمام الفرن.. فى أى زمن تعيشان؟! كان منظركما فوق السطح...

وانطلقت فى نوبة من الضحك المتشنج...

●●●

اكتشف اختفاء فرخى حمام من أحدى العيون ، وانتابته حالة من الوساوس المضنية. احتفظ بكشاف أسفل وسادته ، وكان يبيت مرهف السمع لأقل رفة جناح.. يهب من اغفاءاته القليلة فزعا ، ويمضى كالمتخبط حاملا كشافه المضىء ، يعس فى الحديقة ، ويتسلل إلى السطح باحثا عن عدو الحمام المجهول. يلاحق بعينيه بقعة الضوء متوجسا.. رابته فى سكون السحر حركة.. وجد باب الحجرة الخشبية مواربا.. دخل مستريبا ، واستقرت بقعة ضوء الكشاف على قط ضخم أسود فمه ملوث بالدماء.. تجمد ابراهيم فى مكانه وقد أخذته

المفـاجأة.. تراجع القـط وقد تقـوس ظهـره ، وانتفش ذيله وجسمــه ، وأخـذ فى اصـدار أصوات كـالعـواء ، متأهبـا للانقضـاض.. انـزوى ابـراهيم فى ركن الحجرة مقشعـرا ، واندفع القط خـارجا.. استغـرقت المواجهـة لحظـات ، وقـف ابـراهيم بعـدهـا لاهـث الأنفـاس .. سلط الكشاف على الضحيـة: الحمامة العجوز التى عـافت الطعام والشراب منذ أيام ، وكانت تقبع بجوار الفـرن.. وجدها ابراهيم مبقورة البطن ، منـزوعـة الأحشاء. وأراهـا التراب على مقـربـة من شجرة الـرمـان ، واهتـدى إلى فكـرة الأطر الخشبيـة ، فصنع لكل عين من عيـون البرج اطـارا ، يضيق من فـراغها ، بحيث يسمح بـانـزلاق الحمام إلى داخل العيون ، ويعوق دخول القط ذى الـرأس الكبيرة.. نجحت فكرة الأطر الخشبية المثبتة إلى العيون ، ومرت بضعة أيـام بلا ضحايا ، واستعاد ابـراهيم الكثير من الأمـان ، وتـــوالى فقس البيض ، وخـروج الأفـراخ الجديـدة ، إلى أن اكتشف ابراهيم اختفـاء عـدد من البيض.. قالت لـه شقيقتـه: لابـد أنــه ثعبـان.. القط يفترس الحمام الصغير ، والثعبـان يبتلع البيض ، وهـذا هو السبب فى تنـاقص أعداد الحمام ، وانقـراض الأفراد الجديدة ، بعد رحيل أمك ، وغيابك فى السفر..

سـألها فى أسـى: لماذا لم يكن يحدث ذلك أيام أمى؟!

اجتـاحتـه الـوساوس الليليـة بضراوة ، وعـاد إلى حمل كشــافـه ، والطـواف بـالحديقـة.. يسلط الضـوء على شروخ الجدران، وشقـوق السور ، وفجـوات الجذوع النخرة ، ويصعد إلى السطح ، يتـابع بقعة الضـوء وسط الصمت والظلام.. حشـا الشروخ والشقوق بـالحصى وسدهـا بالطين ، وصنع أغطيـة خشبية كـالسدادات ، يثبتهـا بعيون البرج أوائل الليل ، وينـزعهـا فى بـواكير الصبـاح.. مـرت الأيـام بـلا خســائر.. فى سكون الظهيرة شـاهد ثعبـانا أرقش يتسلل من إحـدى العيون ، ويتلوى نازلا .. اسقطه ابراهيم بعصا طويلة .. زحف الثعبان

متفاديـا الضربات واختبأ بالفـرن .. أضرم فيه النار ، فخـرج الثعبان مترنحا ، وفتت ابراهيـم رأسه بحجر ، واطمأن تماما عندمـا زفت إليه أختـه البشرى: أخبرته أنها شـاهدت القط الأسـود نافقـا على رصيف الشارع ، وقالت له ان القط المؤذى مصيره المحتوم هو القتل.. خرج فى ظلمة الليـل إلى الشارع ، وسلط الكشـاف على جثة القط.. كـان يتمدد متصلبـا ، مشجـوج الـرأس ، مكشرا عن أنيـابـه.. تفـاءل ابـراهيم ، واستقبل أنســام الـربيع الـدافئة ، المتسللـة من جـو الشتـاء بأمل .. واستراح من عناء تثبيت السدادات ، وانتـزاعها .. وانطلقت من العيون أزواج جديـدة من الحمام بهيجة المنظـر ، تطير هنا وهنـاك ، وتلاحق الأبـوين فى تذلل جميل ، وصـوصـوة مستعطفة ، طمعـا فى مزيـد من الطعام والحنان ، وتشبثا بعهد الطفولة السعيد..

●●●

وجدهـا ترقد فى انكسار ، عنـد انتهاء البقع الدمويـة التى تشربتها مسام الـدرج .. حملها .. أحست لـزوجة الدمـاء وحرارتها أصـابعه.. كان ريشها الابيض يصطبغ باللـون الأحمر القانى من تحت الجناح.. نزل بالحمامة الجريحة وقال لشقيقته بالتياع:

— اصابتها طلقة من بندقية صيد ، لكنها ما تزال حية..

نظرت إليـه كريمة باشفـاق ، وساعدته فى تضميـد الجرح النازف برباط من نسيج أبيض سرعان ما تخضب بـالدماء . أودعها صندوقا من الكرتـون ، وعاد إلى السطح ، يحدق فى الأبـراج .. كان يـدور بطيئا حول نفسه متسائلا: من أين أتت الطلقـة الغادرة ، وكانت الأبراج مثل مردة صامتين..

أخبرته شقيقته باحتضار الحمامة عند الغروب ، ولفظـت أنفاسها الأخيرة بين راحتيـه .. وضعهـا فى الصنـدوق ومضى إلى الحديقـة .. شرع يحفر قرب شجـرة الرمان .. رفع رأسـه ليجد شقيقه «محمود» أمامه عاقدا ذراعيه..

— ماتت الحمامة يا محمـود! كنت آمل أن تعيش ، ولكن أصابتها كانت قاتلة..

— ليت كل الحمام يموت!

توقف ابراهيم عن الحفر ، وحدق فى شقيقه..

— إلى هذه الدرجة تمقت الحمام؟!

— ماسر اهتمامك بالحمام بعـد رجوعك من السفر ؟! هل تتمسك بـالبيت من أجلـه حقـا ، ومن أجل البرج القـديم ، وشجـرة الـرمـان اليابسة وحقل الطماطم؟ أنت والحمام تضيعان أحلامنا.

أسفر الشباك المتهالك عن وجه محسن .. وقال ابراهيم وهو يوزع نظراته بين شقيقيه:

— أتمسك بالبيت من أجل كل شىء فيه .. كل حجر .. كل طوبة .. ألم يبن أبوكم البرج بيديه ؟! أليس البيت يجمعنا؟

قال محمود:

— المعلم فـايز مازال يـريد البيت .. لقـد حدثنى عنـه كثيرا وأنت مسافر.

— ليهدمـه ويجعله بـرجا .. ألا يكفيـه ما هـدم من بيـوت طيبة ، وما زرع فى الأرض من أبراج شيطانية؟!

— قال محمود:

— ولم لا نبيع؟ نحن ورثـة مثلك .. أنا أريـد نصيبى .. ومحسن .. جيهان أيضا تتحدث عن نصيب أمها..

وأكمل محسن من الشباك:

— ألم تسافـر لتجمع المال ، وتعطى كل واحد نصيبه ؟ ألم تعـدنا بتحقيق أحلامنا؟

— حاولت .. هل كـان يتوقع أحد مـا حدث ؟ هل تجدان تفسيرا لما

جرى على أرض العـرب ؟ فقدت كل شيء .. وكان يمكن أن أعـود جثة فى صندوق أو لا أعود..

وجم الشقيقان .. وبدا ابراهيم كالمطعون ..

— لماذا تنتظران أن أحقق أحـلامكما .. الستما رجلين الآن ، يحمل كل منكما شهادة جـامعية ؟! هل فكـر واحد منكما فى أن يـرد مرة على رسالة من رسـائلى وأنا فى الغربة ؟! هل كـان سيأتى أحدكما لاستلام جثمانى من المطار ؟!

استـدار محمـود وابتعـد بخطـوات مستفـزة الهدوء ، وانسحب محسن من الشباك وأغلقه .. وتطلع إلى السماء:

«السحابة السوداء !! لماذا لا تريد أن تنقشع عن سمائى ؟!»

وارى الحمامة التراب ثم قبع وحيدا فى الحديقة..

●●●

مع أشراقـة كل شمس ، كـانت هنـاك حمامة صريعـة مضرجـة فى دمائها أو تحتضر.. ازدحمت أرض الحديقـة بالجثث ، وصارت مقبرة للحمام .. استبدت بـابراهيم وساوسـه الليلية ، وتحولت اغفـاءاته إلى كوابيس ، يهب منها مرتاعا .. وقضـى فترات طويلة من الليالى مصوبا كشـافه نحـو الأبـراج العملاقـة ، متابعـا دائرة الضـوء على النوافـذ والشرفات كـالمجنون ، وظل يكمن فى حجـرته الخشبيـة معظم أوقات النهار .. واعتراه ذبـول وشحوب ، وسكنته الكآبـة ، وأعياه البحث عن البنـدقية المجهـولة ، واليـد الآثمة التى تضغط الـزناد .. وبينما كـان رابضا فى الحجرة قبيل الشروق ، سمع صوتـا مكتوما ، أعقبه ارتطام شيء بسقف الحجـرة .. تسلل بهدوء ، واستطـاع أن يـرى الماسـورة الرفيعة السوداء ، وهى تنسحب زاحفة على حافة نافذة بأحد الأبراج ، وعرف مكانها على وجه التحديد .. وشاهد الحمامة ترفرف نازفة فوق

السقف .. أخبر شقيقته فأشارت عليه بالذهاب إلى المعلم فايز صاحب الأبراج ، ولاقت لديه الفكرة قبولا ، فقد كـان يريد إيقاف نزيف الدماء بطريقة سلمية ..

قصد ابراهيم إلى معـرض «السيراميك» الفسيح الذى يمتلكه المعلم فايز ، ويحتل مساحة واسعة أسفل أحـد أبراجه .. التقى به فى حجرته الزجـاجية المكيفـة العطرة .. رحب بـه المعلم فايـز الجالس إلى مكتبه الفخم ، وأمامـه عود بخـور متوهج القمـة .. أخبره ابراهيم أن الحمام يهوى صريعا بطلقات بندقية صيد ، وحدد له مكان الشقة .. عرف من المعلم فـايز أن بتلك الشقـة سكانـا جددا .. عجـوزا وزوجها المقعـد وابنهـا الشـاب .. وأرسل أثنين من عمالـه الأشداء لاحضـار الشـاب والبندقية .. وقال وهو يقدم علبة من العصير لابراهيم :

— هل حدثك محمود فى موضـوع البيت ؟ مازلت أريده .. سأدفع أعلى سعر ثمنـا للمتر .. وسأعطيكم شقة واسعـة بأحد أبـراجى فوق ذلك ..

— لقد جئتك من أجل انقاذ الحمام ..

— ألا تـرى أن بيتكم يشـوه منظـر الشـارع ؟ خسـارة كبيرة الا تتحول هذه المساحة الواسعة إلى برج !

زحزح ابراهيم علبة العصير من أمامه ..

— كان بمقدورى اللجوء إلى القانون لانقاذ الحمام ..

ابتسم المعلم فايز ..

— القانون ؟! لن يفيدك القـانون شيئا .. لم أقل لك أن ذلك الشاب يعـانى من مرض نفسى ، وتنتـابـه حالات من الهيـاج والثورة ، فـلا يـدرى ماذا يفعل .. عـرفت ذلك من أمـه ، وقرأت بنفسى الشهـادات الطبية .. كل مايقدر عليه القانون هو مجرد تعهد وأنا كفيل بذلك .

جاء الشـاب ومعه بندقية صيـد ذات منظار .. كان طويل القـامة ، وسيم الملامح ، يرتدى بنطلون جينـز ، وقميصا مفتوح الأزرار ، تبدو منه فـانلة مرسـوم عليها صورة لمطـرب عالمى مشـهور ، وكـان يبدو عليه الهدوء الشديد .. سـأله ابراهيم بوجه دهش عاتب :

— لماذا تقتل الحمام ؟!

أطرق الشاب ولم يجب ، وكرر عليه السؤال ..

— لماذا تقتل الحمام ؟ أليس هذا حراما ؟

رمقـه الشـاب بنظـرة مستهينـة وهـب ابـراهيم واقفـا ، وأمسك بقميصه ، وجذبه إليه بقوة ..

— لماذا تقتل الحمام ؟!

نحى الشاب يدى ابراهيم بعصبية ، وقال وهو يرفع البندقية :

— ولماذا جعلت هذه ؟!

تـدخل المعلم فايـز ، وتحدث إلى الشاب ، وجعلـه يتعهد لإبـراهيم بعدم قتـل الحمام، وسلم الشاب البنـدقية للمعلم فـايز اثباتـا لحسن النية.. احتجـز المعلم فايز البندقيـة لديه، وأسنـدها إلى الحائط خلف مكتبه، وخرج إبراهيم راضيا..

●●●

كـان حـزينـا لهجرة الحمام بـرجـه القـديم، ولجوئه إلى الأبـراج العمـلاقـة.. كان يـراه على هـوائيـات الاستقبال، والاطبـاق المقعـرة، وأسيجة الشرفات، ولم تعد تصل إليـه وشوشـات الحب والحب.. قالت له شقيقتـه أن الحمام يهجر أوكـاره إذا افتقد الأمـان، لكنه يبقى دائم الحنين إلى مكانـه الأول، ينتظر الـوقت المناسب للعـودة.. سر إبراهيم لاكتســاب ثمار الطماطـم الخضراء حمرة خفيفـة، وأدهشـــه انبثـاق الأغصان مـن شجرة الرمـان، تحمل وريقات زهيـة الخضرة، وأقبلت

الأيام تبشر بعهد جديد من السلام، وآب الحمام إلى برجه، وانشرح صدر إبراهيم وأفعمه الأمل، وقال لشقيقته كالحالم: سأزرع الحديقة بأشجار الفاكهة.. سأزرع البرتقال والليمون والجوافة.. سيكسو الياسمين سورها، وتصنع أزهاره مظاهرة بيضاء، تضج بالعبير والجمال.

●●●

كان يطعم الحمام قبيل الغروب، عندما روعته صرخات شقيقته، ولاقته جيهان على الدرج الخشبي وهى ترتجف.. وجد شقيقيه يشتبكان بالايدى، ويتصارعان .. تدخل ابراهيم يحول بينهما .. اندفع محمود إلى الداخل وعاد بسكين .. أمسك ابراهيم بيد محمود حائلا بين السكين وصدر محسن .. صرخت الشقيقة، وأخفت جيهان وجهها بكفيها .. استرخت يد محمود وسقط السكين، وران سكون رهيب .. نظرت العيون الذاهلة إلى يد ابراهيم .. كانت تنزف بالدماء، وقد اصابها نصل السكين الحاد بجرح .. اسرعت كريمة تكتم الجرح بعصابتها .. انسحب محمود خارج البيت منكس الرأس، واختفى محسن بالداخل .. حدق ابراهيم فى الأشياء المبعثرة خارج الحجرة من ملابس وأحذية ومجلات وسأل أسوانا عما حدث .. أخبرته كريمة أن «محمود» يريد أن ينفرد بالحجرة، وطرد «محسن» منها، وألقى بأشيائه خارجها ..

— هى حجرة واسعة، ومنذ ولدا وهما يعيشان فيها معا .. ألسنا نسميها حجرة محمود ومحسن ؟!

— ماعاد أحدهما يطيق الآخر !

— منذ متى ؟

— يتشاحنان منذ غيبك السفر ..

صاحت جيهان :

— خالى ابراهيم يفر من مشـاكلنا إلى الحمام .. متى أتزوج وأنجو من هذا البيت المشئوم ؟

تنـازل ابراهيم عن حجـرته الخاصـة لشقيقه محسن ، وقـرر أن يبيت مـؤقتا بـالصالـة إلى ينقل أشيـاءه إلى حجرتـه الخشبية فـوق السطح ..

كانت ليلة كئيبة .. ظل ابراهيم مـؤرقا ، متوترا ، متألما من جرحه . وأفـاق من اغفـاءة قصـيرة كأنها الغيبـوبـة ، وبـدا كـالمختنق .. أيقظ شقيقتـه بعد منتصف الليل ، وحكـى لها حلما رآه ، انتهى إلى كابـوس مفزع .. قـال انه شـاهد أمـه بجوار فسقيـة من الفسيفساء الملـونة ، تتوسطها نـافورة ينبجس منها الماء ، وتلفها هالة جميلـة .. كان هناك حمام كثير حول النـافورة ، وأمـه تنثر الحب لـه .. كان الحمام يلتقط الحب ، ولم يكن الحب ينفد .. وكان المصلون فى ثياب بيضاء ساجدين تحت سقيفة ، كأنهم حجيج .. انهمرت طلقـات الرصاص على المصلين بغتـة، وكـانت تصـدر مـن رشـاش.. طـار الحمام فـزعـا، وارتفعت الصرخـات، وسالت الـدمـاء.. وهرولـت أمه وهى تصرخ، وغـابت فى الظلام.

قالت شقيقته :

— أقرأ الفاتحة لأمك يا ابراهيم ..

وقال ابـراهيم انه سيذهب إلى القـرية قريبـا لزيارتها.. امتـدت يد إبراهيم وتناول قرصا بعد تردد، وكان أول قرص يتناوله..

●●●

أشرقت الشمس على جثث الحمام المتنـاثـرة فوق السطح والـدرج الخشبى وأرض الحديقة.. راح ابراهيم يقلب فى الجثث كالمجنون، وهو يردد:

مذبحة بشعة !! قتلوا الحمام ! قتلوا الحمام !

واجهش بالبكاء .. جمع الجثـث فى صندوق، وقصد فى الضحى إلى معرض السيراميك.. دخلـه واجما.. دفع باب الحجرة الزجـاجية، كان المكان خاليـا، وكانت البندقية ذات المنظار مـا تزال تستند إلى الحائط خلف المكتب.. رنا اليهـا، ثم غادر المكان، وخرج المعلم فـايز من خلف الصناديق، وترددت أصداء ضحكاته فى أرجاء المعرض..

حفر ابـراهيم حفرة كبيرة دفن فيهـا الحمام الصريع.. وعاد يحدق فى الأبـراج ملتاعـا.. كانت تخرج من كل شرفـة وكل نافـذة ماسـورة بندقية، وأصاب ابراهيم دوار، وخر مغشيا عليه..

أتاه الضابط المتقاعد، وأخبره أنه صدم بخواء برج الحمام، وسأله ماذا حدث.. أشار ابـراهيم إلى الأبراج فى صمت.. عرض الضابط شراء مابقى من الحمام ليكون فى حمايته.. حدق فيه ابراهيم طويلا..

— لم يخلق الحمام ليوضع فى سجن!

— نصحتك بالاحتيـاط فلم تستمع .. حمامك من سلالـة أصيلة.. ربما كنت تحسن تربية الحمام، ولكنك لا تجيد حمايته والدفاع عنه..

سأله ابـراهيم عن الحمامة المستردة، فأخبره مضطربـا أنها ماتت بعد مرض قصير، وانصرف الضـابط دون أن يسمع لأقدامه وقع على الدرج.

اكتشف ابراهيم سقـوط زهرات الـرمان الثـلاث التى يعشق لونها الأحمر، واختفاء ثمار الطماطم، فاستبدت بـه الوساوس الليلية، وعاد إلى حمل الكشـاف، وتوجيهـه نحـو الأبـراج.. استقرت دائرة الضـوء المتسعة على كهل يـداعب صبية بالشرفة، واستشعـر ابراهيم الحرج، وضغط زر الكشاف بـاضطراب ليسـود الظلام، ثم أوى إلى حجـرته الخشبية..

●●●

كـان يتأمل البرج الخاوى، وبضعة أفـراد من الحمام، تتطلع هنـا

وهناك بعيـون حزينة، وكأن كـلا منها يبحث عن الفه الغـائب، وكان يبدو عليها التوجس.. انتبه على ضجـة، ووقع أقدام تكاد تحطم الدرج الخشبى، وداهمه المعلم فـايـز وعـدد من الرجـال يحملـون المواسـير الحديدية والعصى.

قال لـه المعلم فايز ان وجـوده فوق سطح البيت قد أثـار الشبهات من حولـه.. وأن سكان الأبـراج يرتابـون فى نوايـاه.. وأن برج الحمام ماهو إلا ذريعة، والحجرة الخشبية مـرصد يراقب منه السيدات، وهن ينشرن الغسيل، ويجلسن بالشرفات فى ثيابهن الشفافة..

— ألم تكن تسلط كشافك المريب فى الليل على النوافذ والشرفات؟

لم يجب ابـراهيم، ووقف مستسلما، والمواسير والعصـى تنهـال فى غل على الحجـرة الخشبية، والسيـدات يـراقبن ما يحدث من شرفـات ونوافذ الأبراج.. صارت الحجرة حطاما، والفرن القديم..

●●●

وجـد جثث مـا تبقى من الحمام على السطح، وقـد سال ريـالها.. حدق فى الأبراج كأن به مسا.. ونزل وقـال وهو يجول بنظراته المرتابة فى شقيقيه، وجيهان:

— من الذى دس السم للحمام؟!

قالت شقيقته فى اشفاق:

— ربما كان وباء ياابراهيم!

حدق فيهم بارتياب، وصاح فى حدة:

— وزهرات الرمان الثلاث، وثمار الطماطم؟!

لم ينج غير زوج من الحمام، كان قـد تعلم الطيران حديثـا، وضعه ابراهيم فى قفص، وركب الأتوبيس، وقـد اعتراه شرود وذبول.. نزل فى المحطة الأخيرة، وسـار على شاطىء تـرعة ذات مـاء داكن آسن، تعلوه

الطحالب الخضراء.. عبر جسرا خشبيا ضيقا إلى المقـابر.. كان قبر أمه على الطريق تظللـه شجرة كافـور.. قرأ الفاتحة ومـا تيسر من القرآن وانخـرط فى البكـــاء.. فتح القفص لـزوج الحمام.. وقفـــا فـوق القبر لحظات.. ثم طارا، وأخذا يحلقان فوق المقابر..

اجتاز ابـراهيم المقابر، ووقف مشـدوها يشاهـد البنايات العـالية المتاخمة لها.. كانت الشرفـات والنوافذ تطل على المقابـر، وكانت هناك سيدات فى ملابس شفافة ينشرن الغسيل.. وكانت هناك مقاعد تصف أمام احدى البنايات، ومصابيح ملونة تزين الواجهة، وزغاريد تنطلق، وموسيقا صاخبة تأتى من كاسيت ضخم.. استدار ابراهيم عائدا..

●●●

عـاد ابـراهيم ليبيـع البيت.. واتفق فى ذات الليلـة على الشروط مع المعلم فايـز.. وكان المقابل شقة واسعـة فاخرة بأحد الأبـراج، ومبلغا كبيرا من المال..

انتقلت الأسرة الى الشقـة الجديدة.. وشاهـد ابراهيم البرج القـديم من شرفتهـا وهـو يتهـاوى تحت ضربات المعـاول، والبلـدوزر وهـو يقتحم السور، ويكتسح أمـامه شجرة الـرمان وحقل الطماطم، ورأى انقـاض البيت وهى تحمل بعيـدا مع الذكـريـات على عربـات النقل.. وسرعان مـا حفرت الأرض، ووضعت الأسـاســات، وارتفع برج جـديد عملاق مكان البيت القديـم..

●●●

وزرع ابـراهيـم الأنصبـة.. واختـــار كل من الشقيقين أن يستقل بحياته، وأن يحقق أحلامه بعيـدا.. اشترى محمود شقة وأقام «سوبر مـاركت» وفعل محسن مثله، لكنـه افتتح محلا لبيع شرائط الفيديـو.. وعقد قـران جيهان على مهنـدس الكترونيات يعمل بـأمريكـا، وأعدت أوراق السفر لتلحق بـه.. فى يوم السفـر اصطحبها خـالها ابراهيم فى

سيارتـه الخاصة.. كـانت تجلس با لمقعـد الخلفى كالحا لمة.. وقـالت شقيقته الجالســة بجواره: مـا كان يمكن أن يأتى «جى جى» عـريس مثل هذا لولا سكنانا برجا عاليا!

وظل يقود السيارة صامتا..

عندما رجعا من المطار قالت له شقيقته وهى تتشنـج:

— لقد صرنا وحيدين ياابراهيم بعد سفر جى جى!

نظر إلى شعرها المصبوغ باللون الأشقر الذهبى، وإلى وجهها الذى تغطيــه المســاحيق، وإلى فستــانها الأنيـق، وابتسم بــلا مبــالاة واستغراب.. دخـل حجرته، وأغلـق عليه البـاب.. خلع ملابســه، فبدا جسمه وقـد ترهل كثيرا. ارتدى البيجـاما ذات النسيج الأملس البراق، والتى تحمل على الصــدر صــورة لبطل سينمائى عــالمى، عــارى الذراعين، يقبض على المدفع الـرشاش، مستعرضــا عضلاته القـوية، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة..

وفى تلك الليلة، مثل كل ليلــة، عطر ابراهيم جو الحجـرة المكيفة من علبــة «الاسبراى» برائحــة الياسمين، وامتـدت يده إلى علب الأقـراص الكثيرة المتناثـرة فوق المنضــدة.. اختار علبــة، وابتلع قرصــا.. وضـع شريطا فى جهاز الفيـديو، وأداره، واسـترخى فى المقعد كـا لمخدور، وهو يمسك «بالـريموت كنترول»، وأمامــه رجلان قويـان عاريان تقـريبا يتصــارعــان فى شراســة.. يســدد أحـدهما اللكمات إلى وجـه الآخـر.. يسقطـه أرضـا.. يسيل الـدم من فمـه وأنفه مخضبـا بساط الحلبـة، ومازال يـركله بوحشيـة، ويضـغط عنقه بحـذائه، وذراعه مرفـوعة فى زهـو، والمشاهـدون من حولهما يصيحـون مشجعين.. بدا أنــه صراع حتى الموت، وابراهيم يحملق، ويقضـم تفاحة حمراء فى تلذذ وبلادة.

« غـــــا .. غـــــا .. غـــــا .. غـــــا .. »
عنـــدمـــا رأيتهم أول مـــرة حسبتهـم تماثيل ..
« غـــــا .. غـــــا .. غـــــا .. غـــــا .. »
لكنهـم ليســـــــــــــــــوا .. تماثيــل ..
إنهم عـائلــة السيـد (كمبـت) أمـام الشـاشـة !

كانــوا يلعقونها بعيونهم وألسنتهم.. يلمسون عليهـا بأصابعهم.. يشمونها ويحكّونَ فيها أنوفهم. يتمسـحـون فيها بوجوههم وأكتافهم وأقفـائهـم وصـدورهم.. وأعضـائهـم النـاتئـة.. وتلـك المطمـورة.. يحتضنـونها . ثم يطـرقـونها بأردافهم.. ثم يقبلـونها.. ثم يلصقـون عليها آذانهم ويتركـونها هناك لتجف وتتصلد.. وتصبح طوابع بـريد تـذكاريـة يـراقبونها من بعيـد وهي تـذوب وتختفي في الشاشـة، ثم يعـودون فيقبلـونها.. ويلعقـونها ثم يتحسسـونها.. ويطـرقـونها بأردافهم. و.....

« غا .. غا.. غا .. غا .. » فانكمشت في مكاني !

كـانت بيغاؤهم تتصـارخ في القفص. وتـرفرف وتلـوح لهم. فمال السيد على أذن السيدة حـرمه ومط شفتيه في امتعاض بـاسطا راحته أمامه. فانحبست أنفاسي!.. نَظَرَت إليه وثبتت عينيها . ثم عادت تنظر إلى الشاشة فعاد ينظر إلى الشـاشـة. فزفزت في ارتياح: عمرٌ جديد!

دخل الـولـد. فالتـوت نحـوه الأعناق.. راحت تصطحبـه من بـاب

شقتهم. حتى باب غرفته. صك الباب فارتدت أعناقهم بحركة زنبركية إلى الشاشة. وثبتوا أعينهم..

جاءت البنت فالتوت نحوها الأعناق.. منكوشة الشعر كانت وملوثة المكياج.. ممزقة الملابس الخارجية والداخلية عند الصدر والأفخاذ. وعيونها حمراء من أثر بكاء. فالتقت نظرتهم.. ثبتوا عيونهم بدبابيس على وجه البنت . فأطرقت بعينيها فعادوا ينظرون إلى الشاشة. فجلست البنت وراحت تنظر إلى الشاشة.. فتصارخت الببغاء!

مال على أذن زوجته وفرد كفه فى امتعاض. فَنَظَرَت إليه.. فعاد ينظر إلى الشاشة فعادت تنظر إلى الشاشة.. فأطمأن قلبى..

لم أعد أخاف!!

الغـــــاز

« غا .. غا .. غا .. »

فمال السيد على أذن السيدة حرمه، ومط شفتيه فى امتعاض وبسط راحته :

« ماذا تقول هذه المغفلة ؟؟ .. »

« تغوغىء ! » وقلبت شفتها ..

« م م م م م ! »

مطفأة عن عمد، كانت الصالة ـ عدا الشاشة ـ وصامته مثل ليل البرارى.. أماهم أى : السيد كميت، السيدة حرم السيد كميت، وابنتهما البيضاء الجميلة الآنسة طوق كميت، فكانوا جميعا أمام الشاشة..

راحت تترات لاتينية أنيقة تتصاعد ببطء على الشاشة حاملة اسماء.. (ممثلين ومخرجين ومنتجين.. مهندسى صوت وإضاءة

وخدع.. مؤلف كبير.. وشركة توزيع عظمى) ثم كُتب فوق الشاشة ..

الحلقة ١٩١٧ ، مشاهدة ممتعة :

وجاءت ممثلة فتصارخت الببغاء ..

جاءت !!

رائعة الحسن كانت، ولها شعر وعيون خضراء ..

فى صفرة البرتقال كان الشعر ويتهدل ..

خلف ظهرها استرسل كشلال من الحرير فتجمدت عليها الصورة!

مُرت الصورة بلحظة من الخدر قبل أن تستعيد الوعى.. فتلفتت الممثلة حولها بعينين ناعستين ثم راحت تخلع ملابسها.. بدأت بمعطفها البنى الثقيل فتلوت داخله، ثم عضت شفتها السفلى وهى تستخرج منه صدرا ناهضاً كالقربة.. يقدم مستدقّة موردة أخفت حذاءها الكاوبوى تحت السرير فى إهمال، ثم راحت تستحلب شفتيها وهى تواصل التملص من بقية الملابس.. بعد قلقل أصبحت شبه عارية.. حملت صدراً وأردافاً ، وهنا رابيا. ثم تسربت بالجميع تحت الغطاء بجوار امرأة أخرى لها حلمات متشنجة !

لم يتعانقا ..

لم يتلاثما ..

وإنما اندست الأذرع.. أول ما اندست.. فغاصت مباشرة فى كهوف اللحم الدافىء الرخو حتى غابت الأكتاف ، فاندلعت صرخات شبق عاوية ترج المكان.. وجاء محمد..

« محمد ! محمد ! لا يفوتنك هذا المشهد يا محمد ! » ..

لا أعبد ما تعبدون

وكانت أثداء المرأتين ترتعد كأربعة أفرع معذبة لشوكتين رنانتين، فقال :

« ولكنك كنت تشاهد التليفزيون يا محمد ! » .. « طق ق ق ق !! » ..

دخل غرفته وصك البـاب فتسللْت ببعضى ووراءه لأرى ماذا يفعل ! وببعضى الآخر، شاهـدتها تتوجه إلى السيد كميت بنظرة بـاكية كليلة تستنجد بـرجولته، كأنما تقـول له « لقـد طق ق ق ق عقل الولد يـا أبا محمد ! ».. فربت على قلبها بنظرة حانية طويلة ، كأنما يقول لها.. « لا عليك .. سينصلح حالـه فى القريب ! » بينما راح عقلـه يردد ، ويصرخ «لقد ضاع الولد يا أم محمد !!» ..

— ٢ —

أشـاح الـولـد بـوجهـه ولحيتـــه، قـال : « لكم دينكم ولى دين ! » فاحتقنت عينا السيد كميت بالدموع وكز على أسنانه ، لكنه ابتسم :

ولكنى أبوك على أية حال يا محمد ! » ..

فأدار الولد ظهـره ثم صدر عنه صوت ـــ خُيل إلى السيد كميت أنه يصدر عن جهاز تسجيل ـ قال : « يـا نوح إنه ليس من أهلك، أنه عملٌ غير صالح ! » فغادر السيد كميت الغرفة !

يومهـا فى المقهى قال له الأستاذ بـاسيلى (صديق طفولتـه) وهو يرمـى حجرى النرد: «هـذا زمان لا يعجبنـا، أليس كذلك!!» فـأطرق السيـد برأســه «حقاً، جـاء الزمن المعطـوب!» ثم رمى حجرى النـرد فالتقطهما الأستاذ باسيلى، وغمغم..

«رحم اللـــه زمـــاننـــا ! زمـن الاحتـــلال.. من يهود، وانجليـــز، وفرنساوية».. ثم مال إلى الأمام بـابتسامة كبيرة منتشية « كان الزمن النبيل، أليس كذلك ؟! »..

كقطنة مبللـة بالنـوشادر، ايقظت العبـارة عقل السيد كميت! رأى صديقـه يتحدث كمن يلوك قطعـة ممتعة من الحلوى (وبـالفعل كان يلوك واحدة) فصمم أن يذكّره..

تطلع إليه بعينى طفل يقاوم النوم، وهمس:

«كانوا يظهرون لنا العداوة!» ..

فغض الأستاذ باسيلى من بصره فى مرارة وغمغم:

«الآن لا يظهرون لنا العداوة» .

فأطرق السيد وظل يسوى أوراقه فى خمول ، ويلقى حجرى النرد ويلتقطهما ويرشف من كوب الشاى ثم رفع رأسه:

«كانوا يشهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا!»..

الآن لا يشهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا!!»..

ثم أفلتت منه ضحكة قصيرة ومال على السيد كميت مشيراً إلى أعلى العمارة التى يجلسون تحتها.. غمغم «فوقك مدفع، فهل تستطيع أن تراه؟!».. ثم قذف حجرى النرد فى غل، فطار أحدهما إلى الشارع..

غربت الشمس وحل الظلام، ثم خلت المقهى من الزائرين.. فرفع السيد كميت والأستاذ باسيلى ظهريهما فى تأوه. وقد أرهقهما البحث عن الحجر المفقود فى تراب الشارع..

تنهد السيد كميت. ثم رفع رأسه.. مغمغماً بصوت واهن:

«لقد ضاع الولد يا باسيلى! » وقلب كفيه.

«تصور يا باسيلى.. يقول لى (يا نوح) تصور!»..

فراح الأستاذ باسيلى يهز رأسه على الجنبين فى تأثر، ويمط شفتيه ممتعضاً ثم ـ فجأة ـ توقف عن ذلك!

اتسعت عيناه فمال إلى الأمام. وهمس:

«ولكن عفواً يا صديقى. ما اسمك الحقيقى؟!» فرسمت عينا السيد كميت مع ثغره ثلاث دوائر مدهوشة ثابتة القطر، وهو يتطلع إلى الرجل..

كان الأستاذ باسيلى قد أخرج من جيبه كيساً من الملح، وآخر من السكر، وراح يضيف منهما إلى كوب الشاى الأسود أمامه ويقلب

بقلمـه.. ثم يتـذوق بقـرف شـديـد: «ذُق يـا صـديقى.. جـرّب، إنها الموضة!»..

وكـان يعبّ من كوب الشـاى، ويتجرعـه كالشربـة بوجـه مُغضّن يحفل بالألم والاشمئـزاز. بين الحين والآخر يرفـع حاجبيه متظـاهراً بالاستمتاع.. ويشرب!

ولما لم يستطع السيـد كميت أن يهدىء من خفقـات قلبه ـــ وهـو يتطلع إلى الأستاذ بـاسيلى ـ أو يوقـف سيال العرق البـارد الذى راح يجرى ويتجدد على جبينه .. جرى خارج المقهى هارباً بجلده..

ولم يتوقف إلا فى غرفة النوم !

— ٣ —

تبسمت السيـدة حرم السيـد من جانب فمهـا وهـى تناول لطـوفى الطبق، وغمـزت بعينها «عنـدما تتـزوجين يـا طوفى. من سيحمل عنـا الأطباق؟!» فسقط الطبق من يـدى طوفى.. وأدارت وجههـا فى استحياء وهى تبتعد..

«ماما، لا أحب هذا الكلام!»..

إلا أن رموشهـا كانت تـرتعش وحبة عينهـا تتراقص فى اضطراب، وهى تسبل جفنيها على أغرب بريق عندما ذكرت كلمة: «تتزوجين»!

— ٤ —

الحلقة ١٩٤٨، مشاهدة ممتعة :

«آه سوزى!.. أوه.. أوه!.. بيتى هه! آه!! بيتى..»..

دخل طفل فتسمر عند الباب وفقد لونه، تنحنح..

حاول الابتسـام وقال «هـاى مام، هـاى طانط.. مـاذا تفعلان على سريرى؟؟»..

بصعوبة بالغة.. من خلال اللهاث والهنّات والتأوهات، قيل..

«اذهب يـا جَيْفــر، اذهب.. اذهب الآن يـا جيفــر! اذهب.. اذهب.. اذهب..» فذهب!!

اللهم اجعله خير :

بعد الحلقة نام السيد كميت فرأى نفسه يضاجع الممثلة!

.. وحلمت طوفى بأنها تضاجع محمد..

— ٥ —

فى الجامعـة، وقف محمـد وزملاؤه أمـام سلم المدرج يعترضـون الطريق شـاهرين العصى والمقشّـات.. كان محمـد يتكىء على مقشته منفوخ الصدر تبدو عليه الزعامة!

«هش ش .. من هنا! هش ش ش.. أنتن من هناك!»..

«الطلبة تصعـد من هذا السلم، الطالبات من السلم الآخـر.. الكلام واضـح»..

«الكـلام واضـح».. «سيستمــر هــذا من الآن فصــاعـدا.. لا نحب التكرار!» «أنتم تفهمـون طبعاً من نعنى! لا نريد التـوضيح أكثر حتى لا نخـدش حيــاءكم!» «هش ش ش.. من هنــا!».. هش ش أنتن من هنـاك» «.. أحسنتم.. أحسنتم.. بـارك اللـه فيكم!.. هش ش ش.. هش ش ش..»..

— ٦ —

الحلقة ١٩٦٧، مشاهدة ممتعة:

فى هذه المرة، دخل جَيْفر فتسمّر عند الباب، لكنه لم يتنحنح، قال فى جرأة: «هاى مام. هاى طانط، ما الذى تفعلانه على سريرى؟!!»..

فقيل ..

«اذهب يا جَيْفر ! »..

فلما لم يذهــب زجراه.. زجراه بعنف، وبصقــت إحدى المرأتين على وجهه فانكفأ أرضاً، وارتطم رأسه بالحائط فــ..

فاستعاد الذاكرة !!!

— ٧ —

فى الجامعة، كانت الجدران ترتج..

«يجب أن نقتص من حربى.. يجب!»..

فجــاءت الشرطة وأغلقت البــوابــات وأخلت الأحياء المجــاورة.. ثم جــاءت عــربــات خضراء داكنــة وراحــت تتقيأ جنــوداً لهم نبــابيت.. وضباطاً لهم أجهــزة اتصــال.. وأكوام عاليــة من الحجارة لها سنون.. و..

«يجب أن نقتص من حربى.. يجب!»..

فبرز محمد وزملاؤه، وراحوا يضربون المتظاهرين بالمقشات!

فى البــدايــة، حــاول محمــد إقنــاعهم أن حــربى رجل طيب ففشل، وبصقوا على وجه.. قال لهم محمد أن حربى لما أحس الجوع راح يأكل من قريتــه «وكلوا من طيبــات ما رزقناكم» لكنــه لم يشبــع فقدمــوا له الطعام وقــالوا لــه غداً تفــرج يا حربى » فأكل أكــل لكنه لم يشبــع ، لم يشبــع .. فأكل القريــة التى تليه حتى يشبــع.. «يا غــلام كل مما يليك!» وفى هذا تــوفير للوقت والجهد وتكلفــة النقل وعناء السفــر إلى الأماكن البعيدة!

كــانت كرة اللحــم المتظاهــرة قــد تمددت ونبت لها زوائد عديــدة، وتحولت إلى أميبــا بنيــة عملاقــة مــدت أحــد اذرعها فــابتعلت محمــد ورفاقه، ثم راحت تهضمهم!.. ثم مــدت ذراعاً أخرى متراخية محاذرة تتحسس بها البوابة، فاندلعــت النبابيت تنغرس فى الذراع وتفجر منها الدم..

لم يضع محمد الفرصة، فتسرب مع زملائه من الخلف متجاوزين الجسم الأميبى الهاتف العملاق واحاطوا بإحدى العربات الخضراء الداكنة.. ضربوا السائق على رأسه ففقد الوعى وجلس محمد مكانه فالتف رفاقه من حوله وراحوا يهلّلون ويكبّرون، ويتوعدون النظام، والعميد والشرطة، ومجلس الأمن، والكافرين! لكنهم وقعوا فى مشكلة:

(لم يكن محمد - أو أى من رفاقه — يعرف القيادة!) فصرخت أجهزة الاتصال فى آذان الضباط بأمر صارم مختصر:

«دش رؤوسهم!» فاندلعت النار..

●●●

وفى المقهى، هبَّ السيد كميت من مجلسه، وهوى بكفه على وجه الأستاذ باسيلى:

«أنت لص يا باسيلى!.. أنت تقرص الزهر!»..

فنهض الأستاذ باسيلى مشدوهاً، وهو يتحسس أثر الصفعة المؤلمة على خده غير مصدق.. فجاء رجل من المنضدة القريبة وأدار ذقن السيد كميت فى هدوء:

«لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد؟؟»..

فألجم لسان السيد كميت وبسط راحتيه أمامه وهز كتفيه فى لامبالاة مستعداً لشرح موقفه، إلا أن الصفعات سبقته وراحت تطرقع على أجزائه من كل اتجاه.. وترن فى المقهى وكأن أحدها صدى للأخرى، فجرى السيد كميت هارباً بجلده من المقهى.. ولم يستقر إلا فى غرفة النوم!

●●●

وفى الصباح، قام السيد كميت فصلى الصبح خمس ركعات، واستغفر الله وهو ساجد على ما بدر منه ليلة أمس فى حق صديقه الطيب.. ثم فتح التليفزيون ليعرف الأخبار، فوجد حربى مكوماً على

الأرض، والصفعـات واللكمات تطـرقع على رأسـه وأجـزائه من كل اتجاه.. وترنّ وكأن أحدها صدى لـلأخرى.. فتدلت فكه السفلى، وظل ينظر إلى الشاشة في بلاهة طفل رضيع!

— ٨ —

الحلقة ١٩٩٠، مشاهدة ممتعة:

في هذه الليلة كان الغطاء يتعذب..

ينبعج ثم يتخدَّد.. يتلوّى.. يعلو.. ثم ينخفض.. يمارس انقباضات وانبساطات متتابعـة ثم يهدأ، فيتمدد.. ثم يتكور، وينقبض، وينبض.. ويظل ينبض. فيصرّ السرير وتصطفق ألواحه الخشبية و.. أما اللهاث فكـان عاليـاً صاخبـاً هذه الليلـة.. وقـد بلغ أرقامـاً قياسيـة يصعب تحقيقها فوق أي سرير آخر، فدخل جَيْفر..

دخل

كان يحمل صينيـة فضية شديدة الفخـامة، يستقر فوقهـا كوبان كريستاليان شـديدى الأناقة.. بكل منهما مرشفة بـلاستيكية شديدة البياض، فانحنى أمام السرير..

كان الغطاء متكوراً فلم يرهما.. قال:

«هـاى مـام، هـاى طـانط.. عصير؟؟» فبرزت الأيـدى فـاختطفت الأكـواب ودخلـت بها تحت الغطـاء. ثم سمع جَيْفـر صـوت المرأتين يجرعان.. يجرعان بصوت.. صـوت عال لا يُحتمل، فحشر أصبعيه في أذنيه حتى اختفيا تماما. وزمّ عينيه.. وكزّ على أسنانه متاً لماً بشدة و..

وعندمـا تجشّأت المرأتان، ثم عادت الأكـواب فارغة بـدون شكر.. انحنى يتلقى الأكواب الفـارغة على صنيته بـابتسامة واسعـة ممتنة ـ كأمهر نادل ـ ثم استدار مغادراً:

«باى مام. باى طانط.. استمتعا بسريرى!»..

— ٩ —

عند السَّحَـر، رأى السيد كميت نفسه مُسجًّى على بلاط الصـالة.. كلهم جثث! أحس بلـزوجة الغـاز السـام تسد مسـالك رئتيه بكفـاءة الغراء السريع..

اختنق ..

راح ينظـر حولـه بعينى طفل يقـاوم النوم، مفتشـاً عن ذلك الثقب الصغير.. الصغير.. الـذى منه، كـان كل الغـاز يتسرَّب طوال الـوقت! وعندما سقط رأسه كالحجر: أنشقّت الأرض، وابتعلت منزلهم..

— ١٠ —

وقفت الفتيـات أمـام الكـاميرة ينظـرن حـولهن كأنهن على وشك الانفجار بالضحك بينما تصلب الفتيان داخل مـلابسهم الشتوية وقد زموا شفاههم:

«آه.. أعـرف طـوفى.. كانـت محبوبـة عنـد الجميع».. »آه.. كـانت مؤدبة، لا تكلم الفتيـان».. «آه.. لقد شاهدنا المجـرم وهو (...) الآنسة طـوفى تحت شـاشـة العرض، ولكن الظـلام كان مشكلـة فلم نستطع الـرؤية جيـداً!».. «آه لقـد قمنا لنجـدتها بـالطبع، ولكن كان المجـرم يشتبك معها بطـريقة يصعب فكّها، وكان الظـلام مشكلة فلم نستطع الرؤية جيداً!»..

« إنـه ليحـزننى أن توجهـوا لى مثل هـذا الاتهام المشين .. صحيح إننى عاطل ، ولكننى لست منحلا على أيـة حال ! .. لا ، لست متزوجا ، ولكننى أجد كفايتى وزيادة فى زيارة السينما .. فالأفلام دائما ممتعة . نعم ، لقد حـاولت التمثيل ذات مرة ولكن المخـرج لم يوافق .. لـو كان وافق كنت اختلفت جذريا الآن ، ولكنـه لم يوافق ! .. لا .. لم تعد هناك مشكلـة الآن ، فلقد جـاء منذ قليل بصحبـة أحد المنتجين ليـوقع معى

عقدا .. لبطولة فيلمه القادم .. كان ذلك أمام الضابط» « نعم ، لقد وقع معه عقـدا » .. « هذا زمان لا يعجبنـا ، أليس كذلك ؟! .. » « حقـا ، جاء الـزمن المعطـوب »! .. « طبعـا ! إننى سعيـدة بـالطبع لأن مـدرستى سيصبح اسمهـا مدرسة (الآنسـة طوفى) فهى صـديقتى .. أحب أن أسمع طحاوى ! » .

« فى نظر الطب ، ليست هنـاك مشكلة .. بـامكانى أن أجـرى عملية بسيطـة للفتاة المنكـوبة ـــ بلا أتعـاب ـ لتستعيـد عذريتهـا وذلك فى عيادتى الخاصة : بشـارع ب. د. تليفون ٩٢٩ ثلاث أربعات ستة .. لا، أننى أحب الدولة ولكن تليفون عيـادتى هو ٩٢٩ ثلاث أربعات ستة ! أى أغنية لطحاوى .. » .

« اســترخ يا جيفر .. أنت نـائم الآن .. حـاول أن تتـذكر ! » .. « هم م م ! » .

وبدأت النقـود تتدفق على طوفى .. مئات التبرعـات كل يوم .. وآلاف العروض بالزواج : صعاليك .. ورجـال مجتمع .. لصوص ، وأثرياء .. فنانين مشهـورين وكتاب .. فقلبت طوفى شفتهـا ، وهى تقشر التفاح : « لا يعجبنى أيا منهم !! » .

وانتقلت العائلـة إلى منزل جديـد يطل على النهر ، بحديقـة واسعة وسلالم متحـركة .. بينما هام السيد كميت على وجهـه يجوب المقاهى ويسأل البشر عن الأستـاذ بـاسيلى ، وعن حجر النـرد المفقـود .. هل عثرت على الحجر المفقود أيها السيد ! « بلاوى ! » .

بينما ظهر المجـرم فى أول أفلامـه على الشاشـة : « آه ! فيفى !! آه ، آوه ! عبده !! »

فمالت طوفى على أذن أمهـا وهى تهمس « ماما ، هذا هـو الذى ... » فـابتسمت الأم ولكـزتها فى جنبها وهـى تغمز ، هـامسـة : « فى جمال القمر يامضروبة ! » فاستحت طوفى وضحكت بصوت منخفض .

وقلب المسئول الكبير شفتـه فى امتعاض أمـام الكاميرة وهـو يلوح بكفـه « إننى أتعجب مـن تعـاطفكـم الـــزائد مع الفتـــاة واهتمامكم

بـالقضيـة.. بينما التحـريـات التى وصلتنـا تثبت أنها سيئـة السير والسلوك ! » .. « عنـدما يجيء الضابط مـن هذه الناحيـة ، فتوكل على الله ! » .

« هم م م .. قالتا لى تعالى يا جيفر نم معنا .. فرفضت .. قلت لهما ، لا أريد أن أنـام الآن ! فأعطيانى جـروا صغيرا وملابس رعـاة البقر ، وشيكـولاتـه لـذيـذة ! » لماذا رفضت يـا جيفـر .. تـذكـر ! » .. « ذق يا صديقى .. جرب .. إنها الموضة ! » .

« لقد جاء الضابط من هذه الناحية يا شيخ محمد ، فهل أتوكل على الله ؟ » .. « توكل ! » « تصـور يا بـاسيلى ، يقول لى (يـا نوح !) .. » .. « لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد ؟ » .

« لا أعـرف .. لا أعرف .. ولكن إحـدى المرأتين كـانت جميلة جـدا فأحسست أنها ليست أمـى.. أمـا الأخـرى فكـانت لا تشبهنى على الإطلاق !! » .

« سيمر الأتـوبيس السياحـى من هذا المكـان الساعـة العاشرة .. عندما يمر ، توكل على الله ! » .. « الآن لا يشـهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا ! » .

« هش ش ش .. أنتم من هنـــا ! هش ش ش .. انتن من هنـــاك » .

« لقد مر الأتوبيس من المكان يا شيخ محمد .. فهل أتوكل على الله ؟

« توكل ! » .

« كـان الفراش دافئـا وعطن الرائحـة فقلت لهما : لا أريد أن الآن، فقبلتنى ! ..

قلت : سأقـوم لآكل بعض الشيكـولاتـه .. إننى أحبهـا ، فـ برجليهـا طوقا حول وسطـى وضغطت فتأوهت .. قلت سأقوم مع الجرو .. سألعب مـع الجرو إننى أحبـه ! فـراحت تعتصر ثـدييهـا فصرخت .. صرخت .. قلت : لا أريد أن أنـام الآن .. لا أ فالتقطت شفتـاى بفمها وراحت تمضـغ .. راحت تمضغ .. بينما الأخرى كانت تفعـل أشياء غريبة .. ففررت منهما مخافـة أن يأ

كما آكل الشيكولاته !

« فوقك مدفع ، فهل تستطيع أن تـراه ؟! » .. « أنت لص يا باسيلى ! أنت تقرص الزهر ! » .

« جيفـر .. مـا اسمك الحقيقى ؟! » .. « ولكـن عفـوا يـا سيـدى .. ما اسمك الحقيقى ؟! » .

« اسمى جعفر ! » .

كـانت الأم تكـوى فستـانها الأحمر « مـــاذا تقـول هـذه المغفلـة يا طوفى؟! » فقلبت طوفى شفتها « تغوغىء ! » .. « م م م ! » .. (ولكنها لم تكن تغوغىء) .

« هل رأيت حجر النرد المفقود أيها السيد ؟!» لا للأسف لم أره أيها السيد .. ولكن هل رأيت المدفع ؟!» لا لـلأسف لم أره أيها السيد ، فأنا أبحث عن باسيلى » « وأنا أعد المدافع ! » .

وفى الشوارع . . الميـادين .. وداخل البيـوت ، كانت أغنيـة طحاوى الجديـدة تـرف مع الهواء فيتنفسها البشر ويتمايلـون مع الإيقـاع .. كانت كلماتها تقول :

طـوفى طوفى ـ هكذا طوفى ـ لم تتغير
كل الأشياء كل الأشياء تتغير ولكن
طوفى ثابتة لا تتغير
وإن كانت تغيرت ـ طوفى ـ فإنها
قـد تغـــيرت حتمـــا إلى الأحسن
ومن له رأى آخر ..

فليشرب من البحر ! .

●●●

وفى القفص ، ظلت ببغـاؤهم ترفـرف وتتصـارخ وتنقر الحديـد .. كانت تقول طوال الوقت « غاز ! غاز ! غاز ! » ولكن ..

لا أحد يفهم .

ممتع جــدا أن تنحنى ، وتقلب تضـــاريس وجهك بشكل درامى مـؤثر منـاسب تمامـا لقيمة المبلغ الـذى سينطلق من فمك كقنبلـة تختبىء فى آخـر الجملـة التى استغرقت وقتـا طويـلا فى صياغتهـا حتى تحوى القدر الكـافى من المسكنة المدهشــة والدافعـة حتما إلى المراد ، ويمتلىء وجهك بخليـط عجيب مـن الأسـى والشجـن وابتسامات الإمتنان المرطّبة للجو، والمطبوخة جيدا فوق مرآتـك المكسورة ، وشعر ذقنـك الذى لابـد أن يكون نابتـاً ، ثم تأتى لحظة الذروة سريعة جداً ، ربما أسرع ممـا تتوقع مثل ابن البدو الذى مارس الجنس لأول مرة فى حياته ، وبمجرد أن لامسَ يداه نهدى المرأة انتهى كل شىء ، وضحكت المرأة كثيرا ، ولعنت كبير قبـائل البـدو ، واليوم الذى فرّوا فيه من وهج الصحارى إلى ربيع المدن !!

لا تضطـرب وحـافظ على درجة التهـدج فى صـوتك ، وانْسَ تمامـاً وهدة الصحراء « وعنطزة » البـدو فشموخ العمارات قادر على إقناعك بأن تميز البـدو محض هراء ، وأن الصـوت الخفيض أجدى كثيراً من الصوت العالى الذى لا يناسب سوى مضارب الخيام ، وأن الذل صفة ليست سيئـة السمعـة كما يظن البـدو ، وانطلق الجملـة حسب آخـر صيـاغة تـوصلت إليهـا فى تمريناتـك عليها، وانْسَ تمامـاً الشخص ـ الضحية ـ الـذى ستقترض منه ، انْفِهِ تماماً ، وابعـد عينيك عن عينيه ، وتعامل مع الجملة كأنك تهمس بها لنفسك داخل حجرتك المغلقة جيدا (أريـد عشرة جنيهـات حتى أول الشهـر) ، لا داعى من (حتى أول

الشهر) هذه ، فربما كنت فى أول الشهر فعلاً ، وربما الباقى على أول الشهر أيام قليلة تخجلك حين تراه مرة أخرى ، ولا تسمح لك بالفترة الطويلة المريحة الناسفة لفكرة السداد من الأساس . إياك أن تتهور ، ويصيبك الملل من كثرة تدبيج الأعذار ، فهذا ينسف كل شىء ، ويقلب لحظات نشوة الاقتراض إلى ساعات ذل ومهانة تدوس بحجمها الضخم فوق قلبك ، وترغمك على عدم الخوض فى طريق الاقتراض الممتع مرة أخرى . وحاول ـ بقدر المستطاع ـ أن تكون أعذارك حتمية وملحة وضرورية لا تحتمل التأخير لحظة واحدة ، كأن تكون على سفر إلى نجع البدو فى القطار المتحرك الآن وقيمة المواصلات بالاضافة إلى علبة السجائر عشرة جنيهات بالضبط ، أو أن إيجار حجرتك ينقصه هذا المبلغ ، وأن صاحبها اللئيم سيطردك منها . مهم جدا أن يكون العذر محددا لقيمة المبلغ بحيث لا ينقص مليما واحدا ، ولا تكن غشيماً كما البدو وتذكر الجوع تحت زعم أنه لا يؤجل ويحمل قدرا أكبر من المسكنة المؤثرة ، فالجوع لا يتناسب تماما مع العشرة جنيهات ويكفيه نصفها أو ربعها ، وربما يفعلها ضحيتك ويعزمك على « سندويتشين» فولا .وينتهى كل شىء وتصاب المؤامرة فى مقتل.

أكد على وعدك بالسداد مرات عديدة، حتى يطمئن ضحيتك ، ولا تقترب من مقولة البدو (الحُرّ إن جاع نَهب) فهى لا تناسب سواهم وتموت أمام أول ماكينة تذاكر فى « مترو » الأنفاق .

أعرف أن مسألة الأعذار ثقيلة ومملة ومراوغة ، تغريك سهولتها وأنت تعددها فى حجرتك حتى تصبح قوية حين تطلقها على أذن ضحيتك ، ولكن عند لحظة المواجهة ، وفمك مصوّب على أذن الضحية يبطل مفعولها تماماً ، وتتحول إلى أسلحة فاسدة .

ولكنك لا تقلق فهذه الأعذار أو الأسلحة مهمة مع التجارب الأولى

المراهقة ، وتذهب أهميتها مع رياح الدربة والدراية بدروب التجربة ، عندها تصبح أكثر جرأة فى التعامل مع الموضوع فى منتهى البساطة ، وتتمايل الجملة على لسانك فى زهو هكذا (أريد عشرة جنيهات) فقط ، ولا تضف كلمة واحدة .

الشىء المهم الذى كان يجب تحديده منذ بداية القصة هو أن يكون ضحيتك رجلا كامل الرجولة ، وحاذر أن تكون امرأة حتى لا يشمت البدو ، واحرص على أن يكون قصيرا بالقدر الذى يجعل وضع فمك فى أذنه مريحا جدا ، وييسر لك وضع يدك على كتفه بحنان وشوق شديدين ، فداخل هذا الوضع لا يبقى له مفر سوى أن يضرب يده فى جيبه ، ويخرجها بسرعة مدهشة ، تطمئن عليها ابتسامة وجه أبى الهول التى هى لك وحدك !!

فاجأنى طابق جديد، يعلو الطابق الأرضى.

وأدهشنى أن الفيللا، التى اختزنتها الذاكرة منزوية فى ذلك الموقع البعيد - منطفئة فى لون الطوب الأحمر، والسياج الحديدى الصدىء، محاطة بالرمال، بلا تفاصيل معمارية - ارتفعت واتخذت ملامح القصور، وعمرت بالتشكيلات والفراغات والألوان، حتى أننى سألت، لأتأكد من مقصدى قبل أن أقترب من الباب.

نظر إلىّ حارس الفيللا المجاورة بارتياب، وأنا أخبره بأننى ابن الفقيد. وعاد الرجل - بعد أن فتحت باب حظيرة السيارات - يستطلع، واقترب أكثر ، يتفحصنى ، وأنا حائر بين فضوله المتشكك والمفاجأة التى كانت تنتظرنى فى ذلك المكان المظلم الرطب.. ثلاث سيارات، لم أستطع - لشدة قدمها - تحديد هوياتها. وكان الرجل مستمراً فى التحديق إلى وجهى، وكان يتمتم: سبحان الله.. سبحان الله!. فقلت إنه يحاول استثمار الموقف، كالعادة، من أجل النقود، أو ربما كان يحاول أن يعبر عن مواساة حقيقية. أعطيته بعض النقود. أخذها وانصرف يواصل تمتماته.

شعرت بالحزن، لأول مرة منذ ملابسات الوفاة، حين دخلت من الباب الخارجى فدهمنى تعدد التفاصيل فى المساحة الكبيرة المحيطة بالمبنى.. كنت أحسبها شريطا ضيقا يلى السور، ويكفى - بالكاد - لغرس صف من الأشجار، ولكننى وجدت حديقة متنوعة المزروعات تحيط بالفيللا، وحمام سباحة كلوى الشكل، تعطن ماؤه، وحوله مظلة ومقاعد خيزرانية بيضاء.

صعدت الدرجات الرخـامية القليلة، وفتحت الباب الخشبى الثقيل، فـاستقبلتنى قاعـة غنية بـالأثاث والمفـروشـات والستـائر والثريـات والجداريات.

وجدت حجرة النـوم القديمة كما هى، لم يغير موقعهـا، وان تبدلت الموبيليا والمفروشـات، وطغت عليها ألوان صـاخبـة. وعاودنى شعور بـالأسف، مختلطا بـالحزن، حين اكتشفت ــ للحظات ــ أننى لم أكن إيجابيا أمام عناده، وتركته يختـار عزلته، ويسقط ميتا وهو يتجول فى سوق للمهمـلات، ويبقى جثمانه مجهولا فى ثـلاجة المستشفى، حتى عدت.

وكـانت خطتى أن ألقى نظـرة على الطابق العلـوى، قبل أن أغـادر الفيللا. كانت القاعة، على وضعها القـديم، تبدو كصالة كبيرة فى شقة، لا صلة لها بما فوقها، هل ثمة سلم بالخارج؟ خرجت لأتأكد من أننى خلال تفقـدى للحديقـة لم أجد سلما للطـابق العلوى. كـانت النـوافذ العليا مغلقة، كأنها لم تفتح من قبل.

عدت للقـاعة متمهلا، أحاول ــ من خلال خبرتى الطويلة بـه ـ أن أصل إلى مـرمى تفكيره فى اضـافة طـابق ــ لم تكن لـه بـه حاجـة أو ضرورة ـ ويسد الطريق إليه، فيتركـه لى بلا سلم!. كأنه يرسم لغزا لم يهتم بأن يحكيــه لى فى زمـن مضى. ولما أضفت الأمــر إلى سلسلـــة ماصـدر منه فى السنوات الأخيرة من أمور مستهجنـة، توارت الحيرة. وجلست أشعل سيجارتى، تشاغلنى فكـرة طارئة، أن أحتفظ بالفيللا، وأقيم لها سلما، واستبعـد فكرة البيـع. كان لـدىَّ ــ فى الأيام القليلـة الماضيةـ هاجس غامض يتحـدى إرادتى فى التخلص منها، بالرغم من أننى كنت أردد أمـام الجميع: مـاحاجتى إلى مبنى كئيـب صممه هـو وبناه بنفسه؟!

.. لنتغـاضى عن عيب السلم الداخلى، وعن أشيـاء أخرى لاتحتـاج

إلا لمراجعـات بسيطة: صراحـة الألـوان وزعيقهـا.. تداخـل المكونـات وازدحامها..

واجتذبتنـى حجرة النـوم لأتوقف أمـام محتويـاتها مرة ثـانية.. خليط من قطع الأثاث، متنافـرة، مغيبة فى غيمة من غموض. استقبلنى مقعد خيزرانى هزاز، يميل ظهـره المشغول بالخوض إلى الأمام، كأنما كفَّ عن الحركـة حـالا. وفى الصـدارة، سرير معـدنى أسـود، تتميـز شخصيته بأعمدته الاسطوانية المحلاة بوصلات من النحاس الأصفر له لمعة طـازجة، وشباك يواجه الداخل، يـرتفع مستوى الفراش كثيرا، وتغطيه مشغولات من القصب تشبه الأرابيسك، وتنسدل عليه شرائط من أقمشـة رقيقـة، فيما يشبـه الاهمال. وجعلنى ذلك كلـه أنقبض، كأننى أواجه ضريحا.

دارت عينـاى مع الحوائط الأربع، وتـوقفنـا أمـام المغطى تمامـا بستـارة ثقيلـة داكنـة الزرقـة، فيهـا تموج مضطـرب، كأنها أعـدت للإختباء.. فهل يكون وراءها منفذ إلى السلم الغائب؟

أزحتها عند المنتصف، فاستجـابت فى سهولة، وكشفت إطارا كبيرا لصورة ضوئيـة لفخذين كجبلين يملآن وجه الصـورة ويخفيان بقية تفاصيل الأنثى خلفهما.

كنت أهـز رأسى، محاولا كبح انفجـار الضحك، ولعلنى كنت أردد بعض الكلمات مأخوذا بما كانت تخبئه الستارة. ولكنى لم أتحرك من مكانى، ولم تكتف عيناى بالنظرة التى اكتشفت، بل إننى جلست أمام الصـورة، وخليـط من المشـاعـر بينهـا البهجـة ـــ يجعلنى أبتسم وأستشعر وهجا دفيئا لم أفلح فى التنصل منه أوفى محاذرته، ونتوءات من المتعة تحتشد تغالب توجهات الوأد.

وكان فـادحا أن ينتهى كل ذلك، منتهكـا بالصـوت القبيح الصـادر عند فتحة الباب:

أهلا .. ياباشا !

لم يكن صوتها، فقط، هو القبيح. بها مايشبه التحفز. كانت تقترب لتراني أكثر. لم أسأل من أنت وكيف دخلت، لأن دهشتى كانت أكبر.. كانت فى رداء الحمام، وشعرها مبلل. وكانت هى التى قالت: ماأشد شبهك به! فأدركت أنها تعرفه. قالت: تأخرت كثيرا.. كنت فى انتظارك!

وكان يجب أن أعرف: هل أعرفك؟

خطت، مطمئنة، إلى خلف ساتر فى الحجرة المتسعة، وضحكت فى ثقة، تظهر أنوثة خافية تمطت فى رنين وطول ذيل الضحكة. قالت وهى تبدل ملابسها: عرفتنى قبل أن ترانى..! وامتد اصبعها يشير إلى الصورة، وقالت: كنت تتأمل فىَّ منذ لحظات!

وعادت تضحك.

قلت : لايمكن أن تكونى زوجته!

أسرعت تحدد، فى بساطة : بل محظيته!

وكانت تحتاج إلى تحديد أكثر : أيهن؟

ردت، بنفس الهدوء والبساطة، وإن شابهما درجة من تحد: عرفتهن كلهن، من كن قبلى، ومن مررن بى.. ولكننى أنا التى بقيت!

وخرجت من خلف الساتر فى ملابسها، لتشعل سيجارة، وتتحرك خطوات قليلة لتقف فى مواجهتى، وكنت لاأزال محتفظا بجلستى، وقالت هى تمثل انحناءة: لأكون فى شرف استقبالكم!

قدمت لى سيجارة. رفضتها، وأشعلت واحدة من علبتى، خرجت بها إلى القاعة. جلست، وكانت فى اثرى، تحتل مقعدا، وترفع ساقا فوق ساق. قالت: أنا أعرف عنك كل شىء، وأنت لم تسألنى ـ حتى ـ عن إسمى!

استوقفتنى، للحظات، فكرة أنها، فى مجملها، ليست بشرية.. كيف،

ومن أين تواجـدت فجأة، وتجللت ـ هكـذا ـ كل هذه المسـاحة، هـونا، وتجلس أمامى مسترخية تسحب أنفاس الدخان.

قلت : اسمك ستحتفظين به، لأننى سأراك، بعد دقـائق، لآخر مرة، وأنت تحملين حقائبك مغادرة!

لم يبد على وجههـا أنها انفعلت. رفعت يدهـا التى تتعلق السيجارة بين اصبعين منها، وقـامت متشامخة، متهـادية، لتـواجهنى واقفة، ثم تـدور حول مقعـدى، وتعبث أصابعهـا بشعرى. تسـاءلت فى ليونـة: أهكذا يخاطب الأولاد أمهاتهم؟

تلقت لطمتى الـخاطفـة ثابتـة، كأنها توقعتهـا. ولم يتأثر صـوتها، بنفس الليونة واصلت: أو، من فى مكانة أمهاتهم؟!

لطمتها ثانية. صاحت: فى خدمة فراش عجوز عربيد.. على الأقل!

لطمتها ثالثة: ثم تتالت لطماتى، حتى انهارت. سقطت تحت قدمىَّ، وقامت تتشبث بساقى، وفى جسمهـا انتفاضات. رفستها أتخلص من تعلقها. أنصـال أظافرهـا تصل إلى جلدى. تحركت أبتعـد، لأخرج من دائرة الهوس. ظلت مستجـوزة على سـاقىَّ، وأوشك قماش بنطـالى أن يتمزق. كانت تـزوم، ورفعت إلىَّ وجها فيه نشوة مرعبـة. أفلتت ساقا لتشير بيـدهـا إلى حـائط قـريب. غـاب عنى، وسط ازدحـام المكـان بالأشياء، أن ألتفت إلى مجموعة من السياط معلقة على الحائط. وكانت يـدها لاتـزال ممـدودة إلى الأمام، وسبـابتهـا تشـير إلى حلقة السيـاط يتوسطها رأس غزال، ووجهها القانى يعرق، وعيناها شبه مغمضتين، ترتفعان إلىَّ فى رجاء.

لم أكن غير مدرك.. كنت غير مصدق، واكتنفنى الـذهول تماما وأنا أراها تـدخل فى موجـة صراخ، وتفلتنى وتشق ثوبها بيـديها، فيتعرى جسمها المكتوى بخطوط طولية داكنة.

تركت نفسي أسقط في أقرب مقعد، أخفق في تثبيط كهارب الانفعال في رأسي، وبي خوف شديد لخلو جيبي من شريط حبات الدواء. كان الواجب أن أخفف من توتري فألجأ إلى استراخاء طويل، ولكن ذلك كان مستحيلا أمام الحقيقة الماثلة أمامي في دائرة السياط على الجدار، والجسد الممزق فوق السجادة.

صحت فيها أن تنهض وتمضي من أمامي. تحركت، أخيرا، وقامت متباطئة، لترتمي ــ مهيضة ـ في مقعد. تماسكت، بعد قليل، واعتذرت أولا، ثم قالت: أرأيت؟!

قلت : لامعنى لأي كلام الآن.. قومي وارحلي.

قالت : لن أرحل. قلت، ضجرا: أرجوك.. هذا يكفي.. لاأريد أن أراك هنا.. خذي ماتشائين و غادريني..

اعتدلت، غير عابئة بعريها: لم أنتظر لتعطيني أنت.. لقد أخذت!. ولما وجدتني أنظر في عينيها متشككا، واصلت: نعم.. أنت الآن ضيفي، في مسكني!

قلت : رأيت شذوذك، وجنونك ـ الآن ـ يتأكد لي!

ردت : هذا مافعله بي العجوز.. ألا أستحق ما يقابله؟

حاولت أن أقول هادئا: هذا بيتي.. أنا وريثه الوحيد..

فصاحت هي: وأنا أقول لك: أنا مالكة هذا المسكن.. واحتفظت بما لايخصني:

كانت واثقة، وعادت إلى التدخين، وأكدت: لديَّ الأوراق موثقة.. والمحامي موجود، يمكنك مراجعته..

غرقت في صمت بئر المفاجأة، أحمل رأسي المتثاقل بين كفيَّ، أحدق في امرأة شبه عارية، تجلس أمامي راسخة، وتصنع سحابات من الدخان وساحابات أخرى، غير مرئية، من روائح نفاذة لهورمونات الأنثى.

تراجعت، بصعوبــة، عن التدهلز فيها، وشــاركت هي، بصوتها، في إبعادي عن بقعة تتحرك رمالها.. قالت:

ـ حين رأيتك تنظر في صورتي، أردتك!

قلت، مغلقا بوابة الــريح الصافرة: تأكدي أنني سأراجع كل شيء، ولن أدعك تأخذين كل شيء.. لمجرد..

قالت: تأكـد أن القسمة عادلــة.. ستضيف أرصدتــه إلى أرصدتك.. ونصيبك هنا في انتظارك..

وأشارت إلى الطابق العلوي..

قلت، أنهي مواجهتها : أين السلم الصاعد إليه..

انقلبت مقهقهــة، وأخذت تسعل، ولما هدأت، أخــرجت مفتاحــا من جيب بفستانها الممــزق، ألقت به إليَّ، ثم قــامت وقالت: إتبعني. فقمت وتبعتهــا. عادت إلى القهقهــة ونحن نغــادر القــاعة. دخلت إلى حجــرة النوم، وأزاحت ستارا ثقيلا، فظهر باب مغلق..

قالت : خذ طريقك إلى نصيبك من ميراث أبيك!

غادرت الحجــرة، وتركتني أفتح البــاب وأدخل إلى ممر مظلم ثقيل الهواء. تحسست طــريقي حتى عثــرت على بــدايـــة السلم. سمعت صياحــا: سأنير لك المكان. ورأيت السلم، وكنت عنــد منتصفه. أكملت إلى أعلى. وصلت إلى بدايــة ممر علوي، سرت فيــه، دار بي، وانتهى عند السلم. كــان الممر نظيفــا، مفروشا بــالموكيت الأحمر، جيــد الإضاءة، تفتح فيه حجرات متراصة، كطابق في فندق.

تشــوشت حين حاولت اصطيــاد فكرة واضحــة تربط بين مــا أرى ومتتالية الأحداث التي سبقت صعودي إلى هذا المكان الصامت. أبواب مغلقــة، وعلامــة استفهام ضخمــة، وحيرة وتخبط، واقتراب من مجال الفوضى. لماذا أعطاني هذه الحجرات المغلقة، بهذا السلم الخفي؟

أمسكت بمقبض أقرب حجرة إلىَّ. فتحت الباب، وسمعت ـ فى نفس الوقت ـــ قهقهاتها تتصاعد عندى.. كأنها ترصد تحركاتى. ونسيت أمر القهقهة وأنا أحاول أن أعبر، مع عينىَّ، هذا الترتيب السخيف: أكوام من المخلفات؟!

أسرعت إلى الحجرة التالية: أكوام من أنواع أخرى من المهملات!. كانت بقايا الأشياء تملأ كل الحجرات.. مصنفة، متراصة، معدة للعرض، لاتراكب ولاعناكب، واضاءات قوية تعطى لهذه التجمعات الوحشية من سقط المتاع والمعدومات وجودا راسخا.. كان حقيقة، إذن، ماتردد عن شغفه الشديد بارتياد سوق المخلفات فى كل يوم جمعة!

تسللت الهزيمة إلى قلبى. خلفت ـــ مطعونا ـ الأبواب مفتحة، وأخذت قدماى تتحسسان درجات السلم، حتى انسحب الضوء عند آخر درجة.

توقفت فى الممر المظلم راغبا فى البكاء، فاختلج صدرى وبكيت. ملأت الدموع عينى، وأنا أدخل حجرة النوم، وراوغتنى ستائر ثقيلة وأنا أبحث عن باب الخروج. سمعتها تسألنى عن رأيى. ولم أكن أريد أن أتكلم أو أراها. سألت، أيضا: ألا تستريح قليلا؟. وأخذت تدعونى إليها. وكنت ـــ ضائقا ـ قد بدأت أزيح طبقات من الستائر بحثا عن باب يأخذنى بعيدا عنها. كانت الستائر تتثاقل، وكانت ألوانها الصريحة تتوالى فى قبح، والباب لايظهر لى، حتى أننى صرت فى سجن من الستائر المخادعة، لاتتمزق ولاتنتهى، بل أخذت ـ أخيرا ـــ تزحف من الجهات الأربع، تطاردنى ـ فى تؤدة ـ إلى مركز مستطيل، يشغله سرير معدنى مرتفع يشبه الضريح.

■ ١ ■

كنت أعلم أنى أواجـه مصيرى بكل ضراوته وعنفـه ، وأعلم أيضـــا اننى مـدفـــوع إلى تلك المواجهـة دفعـــا لاأستطيع منه فكاكا قدرى أنا وحدى.

كانت السـاعة الثانية ظهرا والميـدان مكتظ، والموعد كما تلقيتـه دون أى تفسير «عند تـوهج الزحـام وذروة الصخب» ، وبينما أتجول على الطـوار اقترب منى شخص يرتـدى زيا فرعونيا.. لاأعلم من أين جـاء ؟ كأنما انشقت عنه الأرض لتو اللحظة.. وبقدر ماأخذتنى غرابة ملبسه .. شدنى إليه بوجهه الهادىء.

● الموعد قد تأجل

— لماذا ؟

● لن يستطيع الحضور وعليك ملاقاته فى سكنه الخاص

— لكن هذا ليس بعدل

● لاتنس العدل هو مبتغانا الأساسى

وهو يولى ظهره ناحيتى .. مستقبلا هدير العربات والمارة :

ـ فلتكن متأهبا .

■ ٢ ■

«أخبرنى أبى أننى أتدرج من أسرة فـاطمية وأن أحد أجـدادى ك
واليا فى الباب العـالى » تذكرت هذا وأنا أدق بقـدمى ذلك البناء الع

المظهر.. المعبق بـرائحة مسك عتيق فلتكن تلك المقـابلة حدا لعـذاباتي القديمة والجديدة ، وبمجرد أن دنوت من نهاية الردهة التي انفسحت لحديقة ضخمة.

تـداني إلى سمعي أنغام عـزف ناى قـديم فجذبني حنين غـامض وتوق للأيـام الغارقة فى الظلام .. ونشوة أفقت منهـا على رجل يرتدى جبة وقفطانا وعمامة بيضاء يخبرني بأن الموعد قد تغير.

● أظن المزاح قد فاق الحد.

— لابد التأني إن اردت الخلاص.

● لن أتركه.

— لاتخف هو أيضا لن يتركك.

كيف أخاف وأنا أول من بحثت عنه — فى نسل العائلة ـ قبل أن يبدأ هو فى البحث عني .

■ ٣ ■

أوصـافه فى مخيلتي كما تلقيتهـا عن أبي الذى تلقـاها بـدوره عن جده وان لم يره أحد منهم.

ملامح حادة .. جبهة عريضة.. أنف مدبب .. وشعر داكن السواد ـ احترس فهو بـارع فى التنكر ، وتلك إحدى حيلـه للايقاع بغـريمه أعلم ياأبتاه أن الأمر ليس بـالشيء الهين ، ولكني أخذت العهد أن أثأر لكل الأجداد وأن يسلم نسل العـائلة من هـذا الوغد الاثيم .. لكنـه يراوغني وتلك بلاشك اولى بوادر النجاح.

«هل تظن إنك قادر على النيل منه رغم تاريخه الطويل».

لاتنس .. أطفـالنـا سيقـدر لهم مـن الحيـاة الكـريمـة مـالم يتح لأجدادهم.

ابتسمت لى فى شحـوب وهـى تـرمق صـور الأجـداد المتـوسـدة

الجدران فربت على وجنتيهـا فى حنو وضممتها إلى صـدرى وأنا أرقب من نافذة الغرفة .. انعقاد السحاب وتكاثفه.

■ ٤ ■

أطأ بقـدمى باب الفتـوح.. يلطم وجهى عبق زمان سر مـدى يترنح على البوابـة القديمـة.. أعبرها ومن حـولى تتقافز أنسمـة فجر جـديد أسعى للقـائه ، وجدتنى عنـد المكـان المقصود كما تلقيت الـرسالـة ، شهقت بعمق وزفرت طاردا كل مخاوفى.

وتجلت لى الحيـاة جـديرة بـأن نصطلى فى عذابـاتها .. وانفـرجت أمامى عوالم لم أكن أدرى روعتها من قبل.

رأيتـه مقبـلا من بعيـد.. يتلحف الظـلام.. ارتعـدت مفـاصلى . لم أصـدق أنى أول من يـراه رأى العين مـن نسل العـائلـة المنحـدر من عصـور سحيقـة ، وتجلت لى فى نفس اللحظـة كل عـذابـات الماضى فبدوت أكثـر ثباتـا.. بدت مـلامحه تحت ظلال القمـر المنعكس خلف النباتات تتضح شيئا فشيئـا .. رقبت نافذة تفتح فى بيت قديم.. وطفل يتبـول بجانب حـائط مرسـوم عليـه بالطبـاشير خروف بـلا رأس.. وتقدمت نحوه.

■ ٥ ■

قـديما كان جـدى يقول لى : «العتمـة غـول مابيشفش حـد» كنت أخشـى العتمة ، وأخشـى أن ألعب مع أقرانى أربط عصـابة فوق عينى وأظل أدور وأدور أفتش عنهم وهم يتقافزون من حـولى هاربون كنت ساعتهـا أمد يدى لألقف أحـدا منهم فلايجاوبنى غير الخواء وأحيـانا أرتطم بشخص. أو أتعثـر فى حجر ، وحين أفلـح فى الامساك بأحـدهم وأحكمت عليـه قبضتى كى لايفر أخلع العصـابة عن عينى فأجـدنى ممسكا بكلب ضخم أجرب :

■ ٦ ■

أستقبل وحـدى كل الشيـاطين وتجابهنـى الخيـالات ، تنـازعنى ذكـرى أبى ، ويهزنى لقاء الـرجل .. وعبق حكمتـه وصوفيـة حديثـه فالـرجل أوصافه مغـايرة تماما لـوصف أبى ، بل أخبرنى بأن أبى هو الذى ظل يتعقبـه فلم يجعل أمامـه خيار. ولايمكن أن يكـون مثل هذا الرجل قاتل أو لص :

● ياولدى إياك وان يخدعك بتقواه وورعه المصطنع.

فقدرته على التلون هى ماجعلته يحيا كل هذا العمر.

— لاأريد أن أصيبك بسوء إلا إذا اخترت أنت.

يدق الليل بعصاتـه أرضية الغرفة . فأرى أبى يتيـه عاريا فى أرض خاويـة .. مترامية .. خاليـة من كل أثر وأرانى أرقبه من بعيـد من قمة تل وهـو يلهث ، ولهاثـه كأنما يضخ من قلبى ويسرى كـالخدر فى عـروقى ، وأرانى أتجرد من ثيابـى أنا الآخـر وأهبط التل وأظل ألهث معه .. حتى يغمرنا الضباب.

■ ٧ ■

أنسيت وصية أبيك أيها الجاحد ؟

لم أعد أدرى عند من ثأرى وعند من ثأر أبى ؟؟

● ثأرك عند الرجل .. أتخشاه ؟

— فتخبرنى أنت يـاعمى عن الحقيقـة ، فقد عشت العمـر أتـوهم ملاقاته وعندما رأيته أدركت أننى أضعت العمر هباء.

.. فلماذا خدعنى أبى ؟

● طالما بدأت تسأل فلن تؤدى ماعليك.

— لماذا تريد تعذيبنى !

● إنما أريد لك ولأباك الخلاص.. ولكن لاجدوى . فقد نال الرجل منك.

ماذا فى الليل يهزنى إلى هـذا الحد!! ارتطم بالســواد أينما توجهت ، طفلى الصغير يسألنى وهو ينظر للسماء «فين يـابابا بيروح الليل بعد مايمشى»؟

■ ٨ ■

لابـد أن أؤمن بجرم الـرجل كى أنـال منه ، إذا تـوكدت فلن أبـالى بالعواقب وسأنفذ المطلوب مهما كان.

لكن أبى طـالما راوغنى كلما استنطقتـه عن سبب العداء إنما كـان يكتفى بايـداع بذرة الغل فى صـدرى طوال مـراحل عمرى حتى كبرت الشـجرة وقبل أن تثمر وافـانى الرجل بهيبته الوقـورة فقطع الشجرة من الجذر وتـركنى اتخبط كأنما اقتلعت مـن أصـولى وخـرجت عن القضبـان التى عشت العمر أتـدرب على السير عليها ، لأجـدنى أجهل طريق السير وطريقته !!

ياأبى إن كنت ضحية الرجل فأنا بربك ضحية من ؟

لو أستطيع انطاق الموتى ؟؟

■ ٩ ■

● فوق أرض طباشـيرية تداهم الجنـود أبواب القلعة وتسقط آخر حصون الدولة الأيوبية ، وتجتـز النساء سبايا وتداهم العسس بيوت الآمنين فيسلبـوا الـدفء من المخـادع والأمن مـن النفـوس ، وتهرع الجمال إلى أعالى التلال وتلقى بنفسـها منتحرة ، ويغيض الماء فى الآبار ويـرتع الليل بلا راد فى الطـرقـات ويبكى الـرجال.. وتترهبن النســاء وتلطم الدهشة وجوه الأطفال فيشيخون قبل الأوان.

وأرى أبى طفـلا فـوق كتف جدى يسألـه عقب انصرافـه من دار الوالى :

● أسمع الجمع يتكلمــون عمن يبيعــون أنفسهم للــوالى.. فما الخيانة ياأبتا ؟

يرد جدى وهو يهرول مسرعا :

● الخيانة ياولدى أن يظهر الناس عكس مايبطنون.

وأبصر الرجل يهبط من فوق جواده يقـف أمام جدى وأبى متأملا ثم يشهر سيفه.

■ ١٠ ■

اخترق أكـوام الناس والعـربـات وزركشة الـوجـوه المتداعيـة من حــولى، أمثل فى المقهى المواجـه للقلعة حيث يقضى صـديق عمـر أبى أوقاته المتلاشية فى لعب النرد :

● أهلا بالحبيب ابن الحبيب.

— فاض بى الكيل فلم أجد غيرك.

● كنت أعلم بأنك ستأتى.. فلم ينج أحد.

— لاأحد يريد أنبائى بالحقيقة !

يتهـافت إلى سمعى تقاسيـم قانـون غير بعيـدة ، فتجابـه روحى أنسام فضفاضة وأنا أهم بمغـادرة المقهى تعجبت فرغم مرور الزمن مازال الليل يجىء تماما كما يجىء النهار.

■ ١١ ■

أمضى أنا وطفلى وسط الميدان المزدان بـالأضواء والصخب وسط الأضـواء المنهمـرة من نوافـذ البنـايـات المتحلقة الميـدان الـواسـع .. والهواء الـراكـد يقـاوم بإصرار الهواء المنعش القـادم من سحـابـات بيضـاء.

وبينما الميـدان نـافـورة من الضـوء تسيل على وجـوه النـاس

والأسفلت والطوار. يطلب منى طفلى الصغير أن أحمله فوق كتفى لأنه تعب ، فأحمله وأخترق الميدان فى ثبات واصرار أطارد سحابة شفافة تومىء لى منوشة عن عالم ذهبى الملامح ناعم الملمس .. رقيق الحواشى.. ويتراءى لى الليل مناصفة مع النهار بلاأدنى تداخل.

يهبط الرجل من عربته الأنيقة الواسعة .. يقف أمامى يتأملنى أنا وطفلى .. و ..

«الجسد الوحيد سلة فارغة تنتظر دوما من يملؤها».

ها أنا الآن تتجسد صورتى تماما.

فى المساء أغلق فمى.. أترك أعضائى الساخنة تتبعثر — أسمح لها أن تتقافز حولى حتى لا أشعر جيدا بالوحدة .

فى اليوم التالى أبدأ ألملم جسدى — يجب أن أعود فى الصباح كائنا غيريا أو متجانسا.. أخرج من حجرتى الباردة، أكاد أطير فى الهواء أتحاشى دوما أن أسير فى الزحام أو أن يحتك جسدى بجسد آخر، فأنا لا أعرف كيف تلتصق الأشياء ببعضها .

هل.. أبدو غبية بعض الشىء ؟

قل لى كيف تشعر أنت حينما تراقب ثمرة ناضجة ذات حواف حمراء قانية وهى تتهاوى على الأرض الجافة ؟

أشعر أنا بالحزن بالوحدة.. أندفع فى بكاء حار.. فأقذف بنفسى أنا الأخرى كى أرقد إلى جوارها.. هكذا منتهى الحماقة .

أنا ـ حقيقة ـ لا أدرى كيف تتجاور الأشياء.

تتلامس .

تلتصق .

ثم تتداخل فى النهاية وينبعث منها ذاك الفحيح الحار.

كيف يلتصق جسدان ؟

لا أدرى إن كان يمكن لجسدى أن يلتصق بجسد آخر .

لا أدرى لماذا أراوغ جسدى هكذا دوما «مثل أنثى» فأجدنى أتقافز عبر الطريق مثل قردة صغيرة تخيف الناس بصخبها فيبعدون أجسادهم عنها فى الحافلة حيث أرى الناس تتشابك أعضاؤهم مثل ضفائر أنثى مدربه أقف حائرة تماما أحملق وقد تقوس جسدى للخلف، أحاول أن أميز نهاية كل جسد وآخر فلا أقدر.. فألعق شفتى فى بطء وأنا أبتعد بجسدى .

أصنع حوله دائرة هوائية باردة حتى يبقى جسدى وحيدا .

جسد وحيد .

لايلتصق بجسد آخر .

جسد ساكن .

لاتنبعث منه أية رائحة .

حجارة مبعثرة مهملة .

بيت يتهاوى .

بقايا طيور عالقة بزجاج نافذتى الشرقية .

أصابع جنين يتشكل فى هدوء .

نغمات شاذة .

صوت مثل مواء يعلو بداخلى فجأة.

صوتى يخفت تدريجيا كل صباح ـ هكذا دوما صعود وهبوط دون توقف ـ فى صباح اليوم التالى سأتلاشى .

أتفتت من تلقاء نفسى مثل سحابة قطنية .

ذات مرة رأيت نفسى أمد ذراعى ثم أقفز فوق سحابة عالية

عالية هى بالطبع

رأيت كيف تتفتت فى هـدوء.. تنفلت تمامـا ثم تعـود تتـلاصـق من جديد وتشكل قطنا كثيرا كثيرا .

إنه الله يشكلها وحده كما يشاء كل صباح .

فى تلك الليلة كان لها وجه ثعبانى.

يتسـع ويضيق .

وينسحب .

يصبح له فم كبير مفتوح عن آخره.

مثل فم عزرائيل.

عزرائيل لا يخيفنى

«هل يخيفنى حقا؟» .

أنا لا أعرفه تماما .

من هو؟

من يكون هذا الـ .

اللص .

أتخيل أن يكون له أصابع غليظة مقوسة.. خمسة وثمانون أصبعا تتجـاور.. أو ربما تتـلاصق كى تحكم قبضتهـا على.. تـرى هل سيمسكنى عـزرائيل من رقبتـى أم سيغـريـه شعـرى الهائج فيلملم بأصابعه الكثيرة هذه شعرى المتناثر دوما .

ويجرجرنى وراءه إلى .

إلى أين .

هل أموت أبدا ؟

أمـوت وحدى أيضـا؟ يتهـاوى جسـدى هكذا فى صمت لا يقطعـه سوى صوت تداخل حبات التراب اللزجة بجسدى البارد .

عزرائيل.. أرجوك.. كن لطيفا معى .

عندما تأتى.. لا أعلم متى ستأتى .

ولكن قد تأتى فى أى وقت ـ أعلم ذلك ـ .

أطرق الباب أولاً إذن .

سأكون بمفردى أيضا .

لكن.. أرجو أن لا تأتى وأنا.. استحم .

عندما استحم أكون ثقيلة تماما مثل قطعة اسفنج جافة تناولت فجأة قدحا من الماء.

لن تقدر إذن أن تحملنى.. لن يعجبك جسدى وهو ثقيل هكذا .

جسد وحيد ينسكب فوقه الماء البارد .

يسقط بتثاقل فوقه .

يدغدغه .

فيغيب عن الوعى تماما .

يغرقنى الماء .

يعتلينى تماما .

فيتناثر جسدى مثل جزر خضراء صغيرة .

ريثما أهرب أنا بعيدا .

أنفلت تماما.

أعود وحدى إلى هناك .

هناك حيث الصحراوات الشاسعة والجبال البيضاء الصغيرة.. هل تذكرها جيدا ؟

أعتليها فى رشاقة حتى أصل إلى قمتها .

أقف فى ذهول.. أنا فقط ولا أحد هناك.. قريبة من السماء إلى هذا الحد..

مثل نقطة ماء بيضاء تفتح فمها الصغير تندهش تماما.

أتحسس السماء .

تتسلل أصابعى الصغيرة، أنزع قشرتها اللبنيــة الطازجة فينسكب فى كفى سائل أزرق لزج شقى .

يا الله لم أر مثل هذه الزرقة من قبل .

أحب أن أفعل ذلك.. أن ينسكب هكــذا فى داخلى فأشعــر أننى ربما لست وحيدة تماما.

أضحك لأننى.. أنا وحدى التى تفعل ذلك دوما .

أداعبه.. أدحــرجه بين يــدى.. أصنع منـه كرة.. كـرة مائيــة تماما أدحرجها فوق جسدى العارى ثانية .

كيف تكون كثيرة وجسدى وحيد دوما هكذا ؟

أن يكون للمرء ساقان وذراعان .

عشرون أصبعا.. ثديين.

وأنف واحد.

أنف واحد فقط يتبع رائحة كل هذا الكون .

أنا لا أشعر بأنفى عادة سوى فى الشتاء .

فى الشتاء يكون لى أنف باردة تماما.

أنفى صغير الحجم .

لا يتحمل برد الشتاء.. أخاف أن يموت أو يسقط .

لذا أنزعه دوما .

وأخبئه فى قماشة حمراء صوفية كى لا يبرد .

فيجف .

وينكسر .

حينما يختلف الأمر تماما أخرج أنفى ثانية .

أعيده إلى وجهى المستدير .

أختار له موضعا جديدا أحركه يمينا ويسارا .

أمسك با لمرآة.. أجرب .

فوق حاجبى الأيمن ؟

أسفل الذقن؟.. هل يتحتم علىّ أن أضعه فوق وجهى؟.. (شىء يبعث على الملل) .

فى النهاية أضعه فوق كفى الأيمن حتى أترك رائحة الأمكنة تقودنى إليها كفى الأيمن بمثابة جناح صغير يقودنى دائما إلى من أحب .

من أحب ؟

الخرائط وخطوطها الزرقاء والحمراء وهى تتلوى وتتزاوج فى حنو.

الأرصفة اللامعة .

الطرق الملتوية .

الدكاكين الصغيرة.. الحقائب.. الأحذية .

الأقبية .

رائحة السجاجيد العتيقة .

الركض ــ حينما يركض جسدى وحيدا ولا يتبعه أحد ــ الأسوار العالية الدرج الأبيض العتيق .

باب العمود .

أرغفة الشاورما الساخنة التى تناولناها معا وكانت عيناك تشتعلان كثيرا وهما تحاولان مناوشة جسدى .

الدهشة .

الانجذاب .

سروالى الأبيض وحذائى البنى .

روحى التى غادرتنى ولازالت تعبث هناك .

الهروب من الذات ليلا.

أجوب الأمكنة ـ أجوبها دوما وشعرى المشعث يحاول أن ينفلت منى ويقترب من رؤوس سوداء بعيدة.. فألمه بسرعة وأبتعد خائفة .

صخبى الخاص .

ضحكاتى .

عيناى العسليتان وهما تتقافزان فى وجهى وتضحكان فى خبث.. سائر جسدى العنكبوتى.

نومى واشتهائى .

وأحلامى الصغيرة .

أحلام صغيرة للغاية .

ولكنها مفزغة تماما .

عادة ما أغلق عينى وأسير فى رداء بنى طويل .

أحلم .

فتتكسر أسنانى.. تتكسر تماما حتى تستحيل إلى دقيق أبيض ألوكه فى صمت وأنا أرنو بعيدا.

فى الليل .

تتساقط أسنانى كثيرا .

تتهاوى فى صمت داخل جسدى الأجوف .

وتوجعنى.

فأستيقظ وقد فرغ فمى تماما من الداخل .

كيف سيبدو فمى عندما تتساقط جميع أسنانى ؟

تماما مثل مرمى كرة القدم .

أو.. جراج مهجور مهمل .

مساحة خالية.

مظلمة .

ساكنة .

لاينبعث منها سوى صوت ارتطام لسانى الكسول بسقف الحجرة حجرة عرجاء تماما .

ترى كيف أكون عندما تقودنى قدماى إلى هناك ؟

هناك.. حجرة صغيرة مظلمة معلقة بين السماء والأرض .

امرأة وحيدة تماما.

امرأة نفضت عن فراشها البنى كل بقايا الرجال .

وبقى جسدها .

هكذا باردا .

هكذا وحيدا .

يعتلى الفراش .

ينثر ثيابه فى الهواء .

يتعرى تماما .

ويرقص فوقه فى زهو .

أوه.. عزرائيل هل أتيت ثانية ؟!

أتود أن تأخذنى إلى هناك.. صحيح أن جسدى يتآكل بسرعة لكننى لا أرغب أن أرحل الآن. سأحاول مرة أخرى أن يبدو جسدى فى شكل آخر.. امرأة ناضجة تضع المساحيق ليلا ، تتعرى جيدا وترقص..

وتشير من بعد بطرف أصبعها .

لماذا تبدو منزعجا.. هل جربت الرقص أبدا ؟

الآن أحب أن أراقص جسدى العارى.. أرقبنى إذن وأنا أرقص أتسلل.. أرقص قرب النافذة حتى أنفذ من خلالها فلا يقدر أن يتبعنى هذا الـ .

هذا الـ. سيشعل سيجارته مرة أخرى .

أخاف أن أراها تحترق هكذا .

أن يكون لها جسد أبيض رشيق وفى نهايته قبعة بنية أنيقة .

ثم يحترق فى النهاية .

أعرف هذه اللعبة .

تشعلها فى البداية.. تقبلها بشفتيك الباردتين ثم تتركها هكذا ترقد بمفردها وتموت ريثما تنشغل أنت بإشعال امرأة أخرى .

امرأة وحيدة تماما.

خائفة تماما.

أنا.

بين لحمى النىء.

وجسدى الحار .

أقف حائرة.

مثل مروحة معدنية .

تروح وتجىء.. ولا تمل .

تجىء وتروح .

ثم .. تنطفىء .

متى تنطفىء الحرائق .

كيف تشتعل ؟.

أحدهم أشعل حريقا فى مكان مـا بجسدى ومضى يعبث بمكعباته الورقية .

يصنع طائرة .

يتركها تحلق بعيدا بعيدا .

ثم تسقط فجأة على الأرض .

وتتناثر قطعا صغيرة .

جناحا عصفور .

عصفور ضئيل لا يجيد الرؤية تمامـا فيتهاوى وحيدا.. ويتنـاثر هكذا سريعا «الوحدة تملى نموذجا خاصا للجنون» .

أخرج من حجرتى الساذجة أغلق البـاب جيدا ثم أجلس عند قدميه أعبث بأنفى الصغير.. أفكر .

«هل يلتصق جسدانا أبدا ؟» .

للجسد النيء مـذاق، مثل امرأة عجـوز يحتفظ وجهها الـورقى المجعد بلونه الوردى .

لجسدى .

مذاق .

آخر .

لن تعرفه الآن تماما .

لم تعرفنى حتى الآن تماما.

يمكنك أن تعد من واحد إلى واحد آخر حتى تصل أخيرا إلىّ .

هل تعـرف كيف تسلك الطـريق لامـرأة وحيـدة لا تمتلك مهـارة التزاحم مع الآخرين.. لها جسد فزع .

أرنب بري صغير ترتعد قدماه بشدة .

هل تعرف كيف تدخل امرأة ساكنة تماما.

بيت فارغ تماما.

يعلو سطحه ثلوج زرقاء ورمادية .

هل تخشى اللون الرمادي ؟

أنا لا أعرف ان كان يبعث على الملل، لكننى أعرف أنه لون وحيد يسير بمفرده دائما فى لحظة ما تكون السماء هى الأخرى رمادية تماما.

بالمصادفة أكون أنا هناك .

هناك حيث الإله يقف وحيدا يراقب كل شىء .

« هو لا يشعر بالطبع بالوحدة مثلى .

هل يشعر حقا بالوحدة ؟» .

ألهذا يطىء الأرض بقدميه ليلا، يبسط يده الكبيرة ليداعب رؤوسنا.. كم هى طيبة حقا يد الله هذه.. أشعر بها دوما عندما يعتلينى السأم تماما فيرتجف جسدى بشدة. تعتلينى يد الإله فيهدأ جسدى قليلا وينكمش، أجد نفسى أعتلى أرجوحة، أجلس أنا فى جانب وأضع الكون بأكمله فى الجانب الآخر .

الكون ساذج ثقيل بطبيعة الحال، لذا أجد نفسى أحلق فى الهواء دوما.. أتسلل للسماء الأولى من هذا البعد اللانهائى أنظر فزعة للأرض المزدحمة برؤوس سوداء صغيرة .

أخبىء جسدى بين ذراعى .

أنظر إلى جسدى ثانية جسدى الوحيد المرتجف .

أركض فى النهاية .

وتهتز يداى الباردتان فى عنف .

أهبط إلى الأرض ثانية .

أركض.. أصنع حوالى ذات الدوائر البيضاء الباردة.. فى النهاية وعندما يبدو الأمر ساذجا إلى هذا الحد قد أشعر بالملل فأتوقف ألهث.. أتلفت حولى..لا أحد يتبعنى .

أبعثر شعرى الهائج.. لا أحد ثانية .

سوى أرصفة الشتاء .

سوى.. أنا .جسد بارد فارغ تماما .

مع تسلل الضوء وانتشاره ليزيل ظلام الليل الحالك فى كل دورة يـومـيــة وقبل أن يضرب شعـــاع الشمس بأذرعه الطويلــة فى كل مكان ليؤكد بدايــة صبح جديد ، أسمع صرير العجـلات الخشبية المطعمة بالحديـد آتية من قـريب . تظهر الحمير الثـلاثة العجفـاء أمام البـاب الواسع للبيت الكبير ، يتوقفون فى مكانهم المعتاد من كل يوم دون توجيـه ممن يقودهم . الحمار الأساسى فيهم مـربـوط بين عـارضتين مـن الخشب يسميـان (العـريش) ، الحمار الأعجف الثانـى أكبر الثلاثة سنـا ومربـوط خارج العريـش من جهة اليمين، الأعجف الثالث صغير السن ومكـانه شمال الحمار الأساسى خارج العريش أيضـا. يتصل العريش الخشبى بالعـربة القذرة التى لا شكل لها ولا لـون، حقيقى أنها مصنـوعـة من الخشب على هيئـة صنـدوق عميق مـربع الحجم لكن القـذارة تسببت بمـرور الأيـام فى طمس معـالم هيكلهـا الخشبى. كما أن الأثقال التى تحملهـا كل يـوم بدلت من شكل استواء صندوقها وجعلته دائم الانبعاج.

يقفـز «البشوتى» من مكـانـه خلف الحمير ملتقطا الـزنبيل الكبير ليجعلـه وراء ظهـره، يترك الصبى الصغير ليبقى فى انتظـاره ممسكـا بمقود الحمير العجفاء، يدخل البشوتى

من البـاب الواســع تجاه غرفتى الضيقـة القـابعة تحت درجـات السلم، يسمعنى تحيـة الصباح وهو فى طـريقه وأرد التحيـة بأحسن منها من مكمنى، يبدأ صعود الدرجات حتى آخر طابق فى البيت الكبير

المرتفع المتعـدد الأدوار، يفـرغ صفـائح القمامـة من أمـام الشقق فى زنبيله الكبير بهمة ونشاط، ينزل إلى الطابق التالى ويفعل مثلما فعل فى سابقه مع صفائح القمامة، الشقـة التى لا يجد أمامها قمامتها يتركها ولا ينبه أصحـابها ليخرجوها لـه. الوقت عادة يكـون مبكرا ويخشـى إيقـاظ السكان أو إقـلاق راحتهم، على السكـان أن يتركوا صفـائحهم المملوءة أمـام شققهم من الليلة السـابقة. الأتربـة ومخلفات الهدم أو تكسير الحوائط لا تعتبر من أنـواع القمامة، يتركهـا البشوتى مكـانها حتى وإن كانت مـوضوعة داخل الصفـائح أمام الشقق فلا يفـرغها. مبـادىء سار عليهـا فى عملـه ولا يحيد عنهـا إلا باتفـاقـات خاصـة ومسبقة.

بعد صعـود البشوتى أتـرك مكان نـومى الضيق حامـلا صفيحة مهمـلاتى، أتحرك ناحيـة بـاب البيت مقتربـا من العربـة ذات الحمير الثلاثـة، أفرغ مهملاتى بنفسى أو أعطيها لصبى البشـوتى ليلقيها فى صندوق العربة، أقف فى مـدخل البيت أتنسم هواء الصباح وأستنشقه فى صدرى. أتأمل الرائحين والغادين الذين يبدأون يومهم فى الساعات المبكرة. لفت نظـرى ـ عديـد من المرات ـ تخصيص ثـلاثة حمير لجر العربـة الصغيرة. لاحظت ذلك فى معظم عربات جمع القمامة التـابعة للقطاع الخاص أمثال البشـوتى الزبال.

بعض العـربات معلق بها حماران على الأقل وينـدر وجـود عربـة بحمار واحد. تصميم صناعتها ليجـرها حمار بمفرده وليس حمارين أو ثـلاثة، هـذا واضح من المسافـة التى يقف فيها الحمار الأسـاسى داخل (العـريش)، فماذا يفعل الحماران الآخـران المربوطـان خـارج عريش العربة؟ هل المقصود منهما تسلية الحمار الأساسى والتسرية عنه فى رحلته؟ أم أن وفرة الحمير ورخص ثمنا هو السبب فى استعمال أكثر من واحد؟ وربما كانت الحالة الصحية هى المعول فى استخدامهم

بصورة جماعية؟ فصحة الحمير الثلاثة العجفاء مجتمعة تكاد تعادل صحة حمار واحد قوى البنيان فى كامل عافيته، كما أن الحالة النفسية للحمير لها تأثير لا يمكن إنكاره على صحتهم وحالتهم العضوية. فشعور الحمار بالعمل فى عربة زبالة يختلف عن شعوره إذا عمل فى حقل أو فى سيرك. تحليل آخر هدانى إليه تفكيرى بخصوص الإسراف فى استعمال الحمير. إذا كانت هناك صلة زواج أو قرابة بين الحمير التى تجر العربة أو حتى مجرد خطوبة، هنا يكون القصد واضحا بالحفاظ على وحدة الأسرة الحميرية وعدم تشتيت أفرادها، لكن هل كل الحمير التى تجر عربات.الزبالة بينها صلة نسب أسرى أو حب أو خطوبة؟.

هذا ما جعلنى أسأل البشوتى عن سر جر عربته بثلاثة حمير. أجابنى وأقنعنى بأن فائدتهم مؤجلة لكنها آتية لا ريب فيها فى كل يوم. فعند المطالع والاقتراب من المزبلة الرئيسية لتفريغ محتويات العربة تظهر الحاجة الملحة للحمير. العربة تكون فى نهاية رحلتها مكدسة بالزبالة وحملها ثقيل يحتاج إلى تعاون. الحمير الثلاثة يشد بعضهم أزر بعض لسحب العربة والوصل بها إلى مقلب التفريغ. كذلك عند العودة والعربة فارغة من حمولتها تتدحرج بقوة من المنحدر السابق صعوده. حمار واحد بمفرده لا يستطيع السيطرة على اندفاعها أثناء النزول. قد تنقلب العربة أو تقع على الحمار فيصاب بما لا يحمد عقباه. تعاون الحمير الثلاثة يضمن سلامتهم فى صعود المطالع ونزول المنحدرات. تذكرت ساعتها العربات الحكومية التى تقوم بذات العمل وتجمع القمامة من الشوارع. فرغم أن عربة الزبالة الحكومية يبلغ حجمها عدة أضعاف عربة البشوتى. ورغم أنها مصنوعة من الحديد وذات عجلات كبيرة القطر. ومع ذلك يجرها بغل واحد يبدو عليه دائما الحزن والاكتئاب. ومعه الحق فى حزنه

واكتئابه فهو يشعر بالظلم الفادح الذى يعيشه كموظف حكومى.

وقفتى فى مكانى لا تطول دقائق بالهناء واستنشاق الهواء العليل، لابد وأن تزكم أنفى رائحة كريهة تتسرب مع الأثير إلى خياشيمى، أفيق من سرحتى منتبها لوجود عربة الزبالة الرابضة أمامى، أشفق على هؤلاء الذين يعملون عليها وتعد مصدر رزقهم الوحيد والدائم، انهم يتشممون على الدوام رائحة العفن من مخلفات الأطعمة ومختلف الأشياء. لاشك أنهم اعتادوا على عملهم ولا يشعرون بما يأنف منه ويتأذى الآخرون. أصبحت الروائح الكريهة المبغضة ـ مهما كانت درجتها ــ لا تسد أنوفهم. اكتسبت خياشيمهم مناعة طبيعية فلا تتأثر بتلك الروائح. بل على العكس تماما ربما تضايقهم الروائح العطرة وتسبب لهم الأذى. فقد تلتهب جيوبهم الأنفية أو تصاب بحساسية إذا دخلها هواء معبق عطر. اعتيادهم على قضاء معظم أوقاتهم فى المزبلة العمومية أفقدهم حاسة الشم. جعلها طول الوقت تتخذ طبيعة خاصة تناقض الوضع الطبيعى.

لقد طوروا أنفسهم ليعيشوا بأربع حواس دون الخلق أجمعين. بل يخيل لى أن زيارتهم للحدائق وشم الزهور والورود قد يصيبهم بالإعياء والإغماء، وأحمد الله فى سرى أنه ــ سبحانه ــ لم يكتب لى الاشتغال بمثل عملهم. فعملى كحارس للبيت يتسم بالنظافة التامة وإن كان الكثيرون يحتقرونه. فما بالهم بنظرتهم للعمل الذى يقوم به أمثال البشوتى الزبال؟

حدث ذلك فى بدايات شهر جديد عندما حضر البشوتى لتحصيل أجره الشهرى. اعتاد على أن يأتى وحده فى ضحى يوم من أوائل الشهر بدون العربة وبغير الزنبيل. يطرق أبواب الشقق التى أفرغ من أمامها صفائح الزبالة طوال الشهر الفائت. بعد طرقه للباب يتراجع بعيدا عدة أمتار حتى لا يجرح الموجود داخلها بنظراته. بعد

فتح الباب يعلن عن نفسـه بصفته (الـزبال) ليعطيه أصحـاب الشقة الأجر الشـهرى المعلوم. أذكر جيدا ذلـك اليوم فى بدايات أحد الشـهور القريبـة الماضية. جـاء البشوتى وقد قـرر رفع أجره الشـهـرى الذى يحصل عليه من السكان. الـزيادة التى طلبها لا تتعدى قـروشا قليلة بالنسبـة لما يقدمـه من خدمـات. كان يحصل على جنيه واحـد من كل شقة عن عملـه طوال أيام الشـهر. فى ذلك اليـوم طلب خمسة وعشرين قـرشا زيـادة على الجنيه السـابق الاتفـاق عليه. بـرر طلبه للسكـان بـارتفـاع الأسعار فى جميع السلع المتـداولـة بـالأسواق. هـو أيضـا يشترى السلع التى يحتاجهـا لمعيشته بـالأسعار المرتفعـة مثل باقى النـاس. أعطاه بعض السكـان الزيـادة المطلوبـة فى صمت وأدب دون محاورة أو منـاقشـة. سخر البعـض الآخر من التبريـر الـذى أبـداه للحصـول على الـزيادة وجـادلـوه طـويـلا. فى رأيهم أن احتياجـاتـه محدودة للغاية ويمكن تدبيرها بأقل التكاليف.

كادت إحدى السيـدات أن تضرب له المثل باستغنائه عـن صابون الغسيل وربما صابـون الاستحمام أيضا. أشارت على مـلابسه وهى تحدثه قاصدة أنه فى غنى عن استعمال الصـابون. ملابس البشوتى قديمة رثة مجهولـة اللون يستحيل معها إجراء محاولات التنظيف. لم يعرف الصابون طريقه إلى ملابسـه ـ بقصد الغسيل ـ منذ شـهور غير معروفـة العدد. كذلك مـا فائدة الاستحمام للبشوتى إذا كـان جسده سيتسخ بمجرد أن يبدأ العمل فى اليـوم التالى. الأقدام التى يسير عليها لم يكن لها شرف ارتداء حـذاء جديد الصنـاعة فى يـوم من الأيام. يتم استبدال الحذاء القديم بآخر قديم لكنه متماسك يمكن السير فيه لعدة أسـابيع. يحدث ذلك عنـد العثـور على حـذاء منـاسب داخل إحـدى صفائح القمامة التى يفرغها. يقـوم البشوتى بارتدائه فى الحال ويلقى مكـانه الثـانى الذى يستّر بـه قدميـه. يظل يستخدم الحذاء الجديـد

القديم إلى أن يتفسخ أو يجد ما يحل مكانه فى قدميه. لا يفكر يوما فى تنظيفه أو العناية به فطبيعة عمله تحول دون ذلك. تتراكم طبقات الأوساخ على جلد الحذاء فتفقده اللون والمعالم يوما بعد يوم. ويصبح هناك تناسق بين الحذاء وبين باقى ما يرتديه البشوتى على جسده وعلى رأسه.

أمام شقة أخرى تجادل مع البشوتى موظف حكومى سابق يعيش أيامه الحالية بالمعاش. وجدها فرصة للتنفيس عن نفسه وقدم أسبابا تقابل تبرير البشوتى لطلب الزيادة بل أقوى فى الدليل. حجة الموظف السابق أن مرتب معاشه الشهرى ثابت منذ سنوات ولا تزيده الحكومة مليما واحدا. رغم أن أولاده لا يتوقفون عن النمو ويتنقلون فى سنوات دراساتهم ومطالبهم فى ازدياد مستمر. الأسعار المرتفعة لا ترحمه وجاء إليه البشوتى بمطلبه ليزيد الطين بلة. رثى البشوتى لحال الموظف وكان يرحل عنه ويترك له أجره الشهرى كمساعدة منه. ناداه الرجل واختفى داخل شقته ليحضر له النقود التى طلبها منه. جاءت زوجة الموظف تثرثر بلا حساب محاولة إلغاء قرار الزيادة. وضح فى حديثها الحسد المباشر للعاملين فى جمع القمامة من البيوت. بينت للبشوتى أنها تعرف أسرار مهنتهم التى لا يعرفها الكثيرون كأنها عليمة بخبايا الأمور. قالت أنهم يفرزون القمامة المتجمعة ويصنفونها أنواعا متجانسة. الزجاجات الفارغة وعلب الصفيح وبقايا ومخلفات البلاستيك وكل شىء يعاد بيعه وله ثمن. حتى الأوراق مهما كان نوعها أو قذارتها تباع للمصانع ليعاد طبخها وتصنع منها علب الكرتون. جاء زوجها الموظف وأمرها بالسكوت ونقد البشوتى الأجر الشهرى مع الزيادة التى طلبها.

وعندما وصل البشوتى للطابق الأول من البيت نزولا كان الكيل قد فاض به وطفح. مجادلة كل ساكن على حدة أتلفت أعصابه وهدت

من كيانه. طرق باب إحـدى شقق الطابق الأول ووقف ينتظر. ساكنة الشقـة لها طابع يختلـف عن بقية سكـان طـابقها والطـوابق العليـا بالبيت. جمالها اللافت للأنظار جعلها تتعـالى عند معاملتها للآخرين من بنى البشر. اسمها (دلال) وفى مشيتهـا تحاول تطبيق اسمها على الخطـوات التى تخطوهـا. متكبرة فى تصرفـاتها بين الجيران والجميع يكنون لها كـراهية خفية. حتى زوجها (عـاصم) لم يسلم من رذالتها وكثيرا مـا دب الخلاف والشقاق بينهما. فى نقـاشهما يرتفع صـوتهما ليصل إلى أسماع كل السكان وإلى السائرين بالشارع، يفضل السكان الاقتصـار وعدم التـدخل لفض الخلافـات التى تنشأ بين الـزوجين. يغيب الزوج عاصم عن المنزل باليومين أو الثلاثة فى أوقات تكاد تكون متقاربـة. ربما غيابـه بسبب هجر زوجته وتأديبهـا أو لقيامـه بعمله الذى أجهلـه، يترك زوجته وحيدة فى الشقـة فلا أبناء لهما منـذ تاريخ زواجهما. بعض أقاربهما من الجنسين يترددون على الشقة فى حضور الزوج أو أثناء غيابه. لا أعرف من المترددين من يمت لعاصم وزوجته بصلة القرابة أو مجرد الأصدقاء.

تلبس (دلال) دائما مـا يكشف عن جمال جسـدهـا فى حضـور القـريب والصديق الغـريب. متحـررة فى سلـوكها تظل سهـراتها مع زوارها إلى ساعات متأخرة من الليل.

فتحت دلال بـاب شقتهـا لتجـد البشوتـى الزبـال واقفـا ينتظـر حصولـه على أجره الشهرى. عنـدما رآته تـراجعت للداخل وأحضرت ورقة واحـدة من فئة الجنيـه قدمتها إليـه، قبل أن يمد يـده نبهها إلى الزيادة التى حصل عليها من باقى السكان وطالبها بمثلها. رفضت فى صلافـة مبدأ الزيادة وأعلنت عـدم الرضوخ لما يطلب. حاول إقنـاعها كما اقتنع بـاقى السكـان فلم تستجب وأصرت على مـوقفهـا. ضـاق صدره من الجدال المرتقب فأشاح لها بيده زاهـدا فى الزيادة وفى الأجر

الشهرى. اغتاظت منه فبدأت تقرعه بكلمات نابية وألفاظ جارحة متلاحقة. برطم البشوتى بكلام لم تفهمه دلال وهو يولى ظهره لها متجها إلى الشقة المجاورة. دق الباب وسرعان ما فتح له فطالب أصحاب الشقة بأجرته الجديدة. شاهدوا جارتهم وسمعوها وهى ترسل بقايا سبابها للزبال. أحسوا أن السبب هو زيادة الأجر فأعطوا البشوتى ما طلب. اختفت دلال داخل شقتها وصفقت الباب خلفها بصوت مزعج ومثير. تحرك البشوتى ناحية الشقة التالية ليدق بابها ويطلب أجرته.

فى الصباح الباكر لليوم التالى كان البشوتى فى دورته المعتادة يفرغ صفائح القمامة من أمام الشقق. عاصم زوج دلال يترصد خلف باب شقته متصنتا ينتظر حضور الزبال للطابق الأول. وصل البشوتى وأنزل الزنبيل الكبير من خلف ظهره ليواصل عمله. خرج عاصم من شقته مزمجرا متوعدا بالويل والثبور وفظائع الأمور. فوجىء الزبال بأيدى عاصم تنهال عليه فى غير رحمة توسعه ضربا متواصلا. أخذته المفاجأة فلم يستطع الدفاع عن نفسه والآخر يزيد الضرب عليه ولا يرتدع. وقفت زوجته دلال تتثنى على باب شقتها شامتة بنتيجة مكيدتها. خرج سكان الطابق ونزل بعض ساكنى الأدوار العليا إلى المكان. تجمهر حشد كبير ومازال عاصم يرسل ضرباته للرجل المسكين. كلما أقدم أحدهم ليخلص البشوتى من يده تراجع عن أقدامه وتدخله. ادعاءات عاصم التى يرسلها بصوت مسموع للواقفين تجعله يعدل عن تخليص البشوتى منه. تناثرت من فم عاصم كلمات عن (شرفه) و(كرامة زوجته) التى يعرف كيف ينتقم لها. دلال تطلق افتراءاتها أمام السكان لتزيد حماس زوجها فى ضرب الرجل. تحدثت عن حثالة المجتمع - أمثال البشوتى - الذين يتطاولون على (الشرفاء) من أمثالها. نزف الدم من فم البشوتى

وتورمت عيناه من لكمات الـزوج الثائر. لم يستفد المضرور من تجمع السكان إلا زيادة إهدار كـرامته أمام الجميع. أخيرا تفرق الجمع دون معرفة تفـاصيل الموضوع بين الطرفين. بقى المسكين منـزويا بجوار الحائط تنزل دموعـه على الدماء التى تنزف من شفتيـه. التقط زنبيله مغـادرا المكـان ليركب عـربتـه ذات الحمير التى لا تقل عنـه ذلـة ولا مسكنة. حاول الصبى الحائر أن يستفسر من البشوتى عما حدث فلم يتلق منه إلا الصمت وزيادة الدموع المنهمرة.

اتجه البشـوتى بعربته إلى قسم البوليس دون تكملة عمله المعتاد فى بقية البيـوت. دخل على المسئـول والوقت مـازال فى ساعـات الصباح الأولى من ذلك اليوم. الـورم الأزرق حول عينيه وبقـايا الدمـاء فى فمه والكـدمات واضحـة على وجهه. حكى مـا جـرى وما كـان والدمـوع تنهال على وجنتيـه من شدة التأثـر والانفعال. رفع غطاء رأسـه القذر ليشير إلى النتوءات التـى صنعتها لكمات عاصم فى جمجمتـه. من غير غطاء الـرأس تبدلت صـورة البشوتـى لتصبح صورة أخـرى قبيحة مخيفـة. ازداد تهوش شعره الأشعث المغبر بـالأوساخ والأتـربة. بـدا البشـوتى للمسئول كأنـه انسان يعيش فى الأدغـال والغابـات آت من العصور الأولى للتاريخ. أشار له متقززا بتغطية رأسه خوفا من زحف مـالا يعلمـه إلى خارج نطـاق الشعـر. غطى رأسـه كما أمـر وأمسك بتلابيـب السترة الطويلـة الفضفاضة التـى يرتـديها. أراد أن يخلعها ليكشف المستور من جسده تحت ملابسه البـالية. كلماته المصاحبة لأفعاله تؤكـد اصابة ضلوعه بالكدمات المؤلمة. السترة الممـزقة يتناثر منها فى المكـان أشياء دقيقـة عند تحريكهـا بأيدى البشـوتى. اشمأز المسئول من حركـاته وأمره بالكـلام دون الوصف والفعل. نسـى أمر المسئول ورفع طرف ردائه الأزرق ليريه سـاقيه المصابتين. ضاع أثر الإصابـات بين القشف المنتشر على طول الأرجل حتى الفخـذين. أخذ

يفتش عن إصـابة ظـاهـرة بين أرجله العظميـة الفقيرة فى اللحم. رفع إحـدى قدميـه ليريها للمسئـول فنهره الآخـر كى يكف عن الـوصف العملى. لم يتأكد المسئول ـ عندما رأى قـدم البشوتى ـ إذا كان بالقدم حذاء أو هى حافية لسيطرة اللون الواحد على الساق أجمعه.

أرسل المسئـول من يسـتـدعى السـاكن عـاصـم ليستجـوبـه فيما ينسبـه إليه المجنى عليـه. حضر عاصم بصحبـة زوجته والبشـوتى جالس القـرفصاء بجوار الحائط فى غرفـة المسئول. تحدث فى إسهاب وهمست زوجته فى أذن المسئول الذى هـز رأسه فى شبه اقتناع. أشار للمتضرر ليقترب فنهض يلملم أوجاعه العضوية والنفسية. وقف أمام ممثل القانـون آملا الحصول على حقـه المهضوم. بـوغت بأن المسئول يطلب منه التنـازل عن حقه فى مسألـة الضرب. حاول إظـاهر ثـورته بالاستشهاد بسكان البيت الذين تجمعـوا وقت ضربه. تنحى به/جانبا وبين له ادعاءات عاصم وزوجته دلال وعواقبها القانونية. عاد لثورته معلنا أنها محض افتراءات لا أساس لها من الصحـة. أشفق على ثورته وحاول إقناعه مـرة أخرى بالتنازل عن بلاغه. نسـى البشـوتى حرمة المكـان.وعلا صـوتـه ليستردوا له كـرامتـه كإنسـان. تبدل أسلـوب المسئول في مـواجهة المسكين وتـولى المهام الطبيعيـة لوظيفتـه. هدر صوته فى المكان ليفيق محدثه من ثورته ويذكره بحجمه الحقيقى. بين له اصاباته وكدماته الملموسة لا طائل من ورائها. ادعاءات خصومه ـ وإن كانت غير ملموسة ـ إلا أنها أقوى أمام القانون وأردع فى الجزاء.

ومن بين دموعـه استمسك البشوتى بشهـادة سكان البيت الكبير. نفد صبر المسئول شارحا لـه أن شهادة السكان لن تجدى فيما تدعيه ضده السيـدة دلال. حضر السكان واقعـة الضرب من الزوج عـاصم لكنهم لم يشاهدوا مـا تدعيه الزوجة دلال. بذلك يكـون الزوج عاصم فى حالـة دفاع عن شرفه والانتقـام لكرامة زوجتـه. لم يفهم البشوتى

النصائح التى تـوجه إليه لسحب بلاغـه والجنوح إلى السلم. أصر على مـوقفـه مستنجـدا بسكـان البيـت والاستماع إلى شهـادتهم. الآلام المستمـرة فى جسده جعلتـه يستميت فى استرداد حقـه. استجاب لـه المسئول و أرسل يستـدعى من حددهم البشوتى لـلإدلاء بشـهادتهم. جاء بعضـهم وآخرون كانوا قد ذهبوا لأعمالـهم أو أنكروا أنفسـهم منعا للحـرج. الـذين حضروا تخيروا ألفـاظهم عند إجـابـاتهم على أسئلـة المسئول. حقـا لقد شـهدوا بـرؤيتهم لواقعـة الضرب لكنهم بهتوا من سماعهم لباقى القصـة. اعتذروا جميعـا عن معرفة حقيقـة ما تـدعيه الزوجـة دلال على البشوتى الزبال. أخـذوا البشوتى جانبـا ونصحوه أيضا ـ كما نصحـه المسئول ـ بالتخلى عن حقـه. أفهموه الضرر الذى سيقع عليـه والنـاجم عـن مـواصلـة السير فى اجـراءات النـزاع بين الطـرفين. اعتقد البشـوتى أن السكـان خذلـوه وتكـاتفوا مع جـارهم ضـده. أخيرا اقتنع وخـرج من قسم البـوليس يجرجر أذيـال الخيبـة والحسرة والألم.

انقطع البشوتى عن دخول البيت الكبير من تاريخ ذلك الحادث. لم تعـد عربتـه ذات الأسرة الحميرية تنتظـر فى مكانها التى اعتـادت على الوقـوف فيه. فى اليوم التالى خـرجت من غرفتى ولحقت به عنـدما لم يتوقف بعـربته. علمت منه مـا حدث فى قسم البوليس وتعـاطفت معه راثيا لحالـه. أبلغنى قراره بعدم تجميع زبـالة الشقق تأديبـا لسكان البيت كله. فقد خذلوه مرتين ووقفوا منـه موقفا سلبيا لم يكن يتوقعه منهم. لم ينقـذوه من أيدى جـارهم أثناء الضرب وراوغـوا عند الإدلاء بشهـادتهم فى قسم البوليس. تعـاطفى معـه جعله يسمح لى بتفـريغ مهملاتى فى عربته دون بقية السكان. عرفت أهمية ومقدار ما خصنى به خلال الأيـام القليلة التالية للحادث. بقيت الزبـالة داخل الصفائح أمام شقق البيت دون تفريغ. القطط الضـالة التى تجوس البيت ليلا

قلبت الصفـائح بحثـا عن رزقها. يصعـب على القطط رد الزبـالـة إلى داخل الصفـائح وتنظيف ما حولها. كـان البشوتى يقـوم بهذا العمل تطوعا منه دون أن يحس به أحد. فى اليـوم التالى تكدست أكوام أخرى من الـزبالـة فى أكيـاس بلاستيكيـة. جـاءت القطط بعـد نيام النـاس وقطعت الأكياس لتحصل على قوتها. تناثرت بقـايا زبالة اليوم الثانى على رصيـد زبـالـة اليوم السـابق. تـوالت أيـام فتخمـرت المخلفـات وتسربت الروائح الكـريهة إلى الأنوف. بدأ السكـان يقلقون من وضـع غريب لم يعتادوه من قبل ولم يتصوروا حدوثه.

قصـــدنى بعض السكـــان لتصريف قمامتهم فتمسكت بحـــدود اختصاصـــاتى كبواب للبيت. حاول أحـدهم رشوتى خلسة لأقـوم له وحـده بهذا العمـل فى ظلمـة الليل. رفضت المبـــدأ معتـذرا وفى داخلى إحســاس بالتضــامن مع البشوتى المظلـوم. واحد من السكـان جمع قمامته وأخـذها معـه داخل مؤخرة سيـارته ليتخلص منهـا فى مكان بعيد. سـاكن آخـر لم يقتنع بهذا التصرف، فإلى متى يظل هو المسئول عن مخلفات شقته. الأيـام تتوالى والزبالــة تزداد تكوما وتكـدسـا أمام أبـواب الشقق دون إيجاد مخرج لتصريفها. تكـاثر الـذباب بصـــورة مخيفـة ووجـد مرتعـا خصبـا لـوضع البيض والتنـاسل. تضخمت المشكلة وضجـت السيدات وتناقشت الأسر حـول ضرورة إيجاد حل فعال وسريع. رفض أبناء الأسر تولى المهمة ـ الحقيرة فى رأيهم ـ التى كـان يؤديها البشـوتى لهم. اقترح بعض السكـان الاتفـاق مع عربـة مرفق البلديـة التابعة للحكومـة للتخلص من قمامة شقق البيت. ذهب وفد من السـاكنين لمقـابلة عمال النظافة التـابعين للمنطقة والمسئولين عن نظافتها. فى البداية تعلل العمال بأنهم موظفون حكوميون تنحصر مسئوليتهم فى تنظيم الشـــوارع لا غير. بالترجى والاستعطـاف وافقوا واشـترطـوا أجرا يـوميا مـرتفعا مـن كل شقة بـالبيت. حسب الوفـد

المفـاوض الحسبـة الشهـريـة لما يطلبـه العمال عن كل يـوم لتفـريغ القمامة. وجـد السكان أن كل شقة ستـدفع شهريا عشرة أضعـاف ما كان يحصل عليه البشوتى.

تمرد أحد أعضاء الوفـد على الشروط المجحفة والتى يضعها عمال النظـافة. استنكـر آخر اعتـداء عـاصم بضرب البشوتى الطيب زبـال البيت. لعن ثالث افتراءات السيـدة دلال على الرجل المظلـوم واستبعد جـرأتـه على فعل مـا تـدعيـه عليـه. رابع منهم واجههم بتخليهم عن مساندة الرجل الضعيف فى محنتـه يوم استنجد بهم ووقفوا مكتوفى الأيدى أثنـاء ضربه وتهربـوا من قول كلمة حق فى قسـم البوليس. ثم مـاذا ينتظرون بعـد ذلك الا التعب والمعـاناة على مـا فـرطوا فى أمـر زبـالهم. دافع الأول عن رأيـه بـأن شهـادتهم ضـد عـاصم غير ذات موضوع أمـام ما تدعيه زوجته على البشـوتى. سمع العمال الواقفون نقاش أعضـاء الوفد ساكنى البيت الكبير. تسـاءلوا واستفسروا حتى وقفـوا على حقيقة مـا وقع للبشوتـى يوم الحادث المذكـور. بطريقـة تلقـائية اتفق عمال النظـافة على رأى جماعـى أعلنوه لـوفد السكـان. رفضوا شبـه الاتفاق المعقود شفاهــة وتراجعوا فى وعـدهم مهما كان الأجر المدفـوع. خاف كل منهم أن يقع له مـا سبق حدوثـه مع الرجل المظلـوم. فسرهـا وفــد السكـان تفسيرا غير التفسير وأسـاءوا الفهم والتحليل. ظنوا أن الزبالين تضامنـوا غيابيا مع ابن مهنتهم رغم عدم معرفتهم بـه. انقلب الوفد على بعضـه البعض بـاللوم والتأنيب بسبب فتح سيرة ما جرى وما كان. كروا عائدين ومشكلة الزبالة قائمة دون الوصول إلى حل.

مرور الأيام يرفع من الهرم الزبالى أمام الشقق والسكان عاجزون عن التصرف. الذبـاب يجهل طرق تحديـد النسل والحشرات والدواب يهددون بـانتشار الأمـراض والأوبئـة. ازداد تضخم المشكلة وبـات

الجميع يفكرون فى حل لما تــورطوا فيه . أحد السكــان الأذكياء فكر فى مخرج هلل لــه كــل السكــان. كل ســاكن يضع قمامتـــه فى كيس من (البلاستيك) أو داخل صحيفة قديمة ويربط على القمامة جيدا. يترقب حتى يتوغل الليل والناس أغلبها نيام فى سبات عميق. يلقى من نافذته بربطة قمامته إلى عـرض الشارع دون كلام. فى الصباح سيرغم عمال النظـافة على التقــاط الــربط وجمعها فى عــربتهم. بهذه الحركــة فإن الــزبالين الأغبيــاء قد قطعــوا أرزاقهم بأيــديهم عندمــا تضامنــوا مع البشــوتى الــزبــال. استراح كل السكــان لهذا الحل البسيط الــذى لن يكلفهم شيئــا مذكــورا. بل سيــوفر لهم الأجــر الشهــرى الذى كــان يتقاضاه زبال البيت. وعند تأخــر الوقت من ذات الليلة إنهالت أكياس القمامة لترتطم بأرضية الشارع. تحولــت قمامة البيت المتراكمة لترقد ساكنة فى انتظار حضور عمال النظافة.

صباح اليــوم التالى جاءت عــربة النظــافة الحكوميــة يسير خلفها العمال. عدد من سيدات البيت متناثرات فى شبابيكهن يتطلعن لنتيجة مــا تم تنفيذه الليلــة البــارحــة. بعضهن تتضاحكن بصــوت مــرتفع وأخريات تكتفين بالابتسام. بين دهشتهن وتعجبهن سارت العربة فى طريقها مبتعدة عن المكان. أحد أصحاب المحلات لفت أنظار العمال إلى أهــرامــات القمامة التى تخطــوهــا. تــوقفوا بعــربتهم وتهامســوا ثم افترشوا طــوار الشارع الا واحــدا منهم. ذهب زميلهم وبقيت العــربة وبقيــة العمال فى الانتظــار. يبدو أنهم أرسلــوا لــرئيسهم ليحضر من يعــاونهم فى رفع تــلال الــزبــالــة. الأكيــاس والــربط تعترض طــريق المركبــات والسيــارات ولابــد لها من الاصطــدام بها. تمزق مــا كــان مربــوطا وانفرط عقــد الزبالــة بأرضية الشــارع على أوسع نطاق. لم يمض وقت طويل وعــاد عامل النظافــة مصحوبا بأحد رجــال شرطة المرافق. عاين الــرجل المكان وأثبت فى أوراقــه ما رأته عينــاه فى عرض

الشارع أمام البيت الكبير. استمع لأقوال عمال النظافة وكتب ما أملوه عليه مـا حدث من سكـان البيت بالأمس. دخل رجل الشرطـة من باب البيت ونقل أسماء أصحاب الشقق من على صنـاديق البريد الصغيرة. من لم يجد اسمه يثبت رقم الشقـة التى يسكنها دون حـاجة إلى اسم صـاحبها. أخيرا بـدأ العمال فى رفع الـزبالـة إلى عـربتهم ورجع رجل الشرطة من حيث أتى.

امتنع سكان البيت عن إلقـاء أكياس القمامة إلى الشـارع فى الليلة التاليـة. تأكدوا أنهم وقعوا فى مخالفة قـانونية سيترتب عليهـا توقيع جزاء لا محالـة. عاشـوا مشكلة جـديدة تتمثل فى نـوع وشكل الجزاء الذى سيوقعه القانون على كل منهم. جاء اخطار من شرطة المرافق إلى كل ساكن للمثـول أمام المسئـول عن نظافـة الحى. على كل ساكن أن يدفع غرامـة قدرها عشرة جنيهات بالإضافـة إلى عشرة قروش كرسم تحصيل. هذه الغـرامة تعـد تصالحا بين السـاكن وشرطة المرافق على ما اقترفه فى حق المجتمـع. اذا اعترض على الدفع ستتحول الأوراق إلى النيـابة منهـا إلى مبنى المحكمة. سيحكـم فى القضية بغـرامة أكبر قـد تصل إلى خمسين جنيها فى المرة الأولى. يمكن أن يـزاد حكم الغرامة فى حـالة تكـرار ذات الفعل بإلقـاء القمامـة إلى عرض الشـارع. دفع كل ساكن قيمـة الغرامة صاغـرا وتعهد ألا يعود إلى ما اقترفت يـداه أو ما فعله أحـد أفراد أسرتـه. عادوا بـالتأنيب على الساكن الذكـى صاحب اقتراح القاء القمامـة إلى عرض الشارع. كاد الموقف ينتهى بمشـاجرة بين السكان أجمعين لولا أنهم تذكروا ما دفعوه كغرامة لإلقاء القمامة. سيعودون لـدفع غرامة أخرى فى حـالة المشاجرة ولا فـرق بين معتد ومعتدى عليه.

قصـدنى السكـان للتـوسط فى حل المعضلـة التى دوختهم وأرقت لياليهم. اتفقـوا على ترضية البشـوتى الزبال وكسب وده من جـديد.

يعود إلى سـابق عمله لجمع قمامتهم ويتعهـدون بألا يتعرض لـه أحد بسوء فى المستقبل. سيرفعون أجره الشهـرى إلى مائة وخمسين قرشا وليس كما طلب هـو. يمكنه أيضـا الحصـول على يوم راحـة من جمع الـزبـالـة كأجـازة أسبـوعيـة. سألتهم عن التصرف فى حـالـة طلب البشـوتى اعتذار عـاصم وزوجته لـه. أحنقهم سؤالى وأحسـوا أننى أحاول رفع شأن من لا شأن له.

أفهمونى باقتصار دورى على إحضار البشوتى لمقابلتهم فى ساعة محددة. كـانت نظـراتهم لى تـوحى بـادراجى ضمن هـؤلاء الـذين يحتقـرونهم ويحطـون من شأنهم. لكـن الأيـام بـرهنت لهم زيف اعتقادهم عمن يحتلون أسفل دركـات المجتمع. وقررت التغاضى عن نظراتهم والسعى لعودة البشوتى الزبال إلى سابق عمله.

بكـرت فى انتظار عـربة البشـوتى لمقابلتـه ونقل رغبة السكـان فى مفاوضته. فى البـداية أبدى اعتراضا وتمنعـا لكنى ظللت أحاوره حتى اقتنع بـرأيـى لاسترداد كـرامتـه الجريحة. حضر فى الموعـد وقـوبل بالسهل والترحاب من الصغير والكبير. شرح له السكان ما اتفقوا عليه لكن عينيه بدا فيهما عدم الرضا والاقتناع. فطن أكثر من ساكن إلى ما تهدف إليه كلماته ونظراتـه الباحثة بين المجتمعين. تحرك إثنان منهم وأحضرا الساكن عـاصم ليعتذر للبشوتـى عما بدر منه. جـاء عاصم وطيب خاطر البشوتى أمام الجميع وطفـرت الدموع من عينى الزبال المسكين. دس عـاصم فى يد البشـوتى مبلغا من المال فـرفضه فأعـاد دسـه فى جيب البشـوتى. داعبـه السكـان بقفشـاتهم وأرغمـوه على الابتسام بعد توقف الدموع. تغلبت طيبة قلب الرجل المسكين وسرعان ما عـادت المياه إلى مجاريها. ورحل البشـوتى تاركـا الجميع على وعد منه لجمع قمامتهم من صباح اليوم التالى.

عادت الحمير الثلاثة العجفاء إلى سابق عهـدها بالوقوف أمام باب

البيت الواسع، في كل صباح يبكر البشوتي بالقفز من مكانه خلف الحمير ملتقطا زنبيله الكبير، يصعد بحماس إلى الطابق الأخير ليفرغ القمامة نزولا إلى الطوابق التالية. جاءني أحد الأيام بعد انتهاء عمله بينما كنت واقفا استنشق هواء الصباح العليل. مد يده في مواجهتي فاردا راحة يده على آخرها فرأيت فيها ساعة يد ثمينة الشكل ذهبية اللون يبدو أنها باهظة الثمن. قال أنه وجدها في صفيحة القمامة الخاصة بالساكن عاصم زوج دلال. اقترحت عليه مصاحبته لإرجاع الساعة لأصحابها في نفس اللحظة. تردد في قبول اقتراحي ورأى قيامي بالمهمة وحدي فهو لا يحب الرجل ولا زوجته. تذكرت أن عاصم خرج بسيارته منذ أول أمس ولم أره يعود إلى شقته بعد.

قبل تحرك عربة الزبالة بالبشوتي توقفت سيارة عاصم أمام باب البيت أسمعني عاصم تحية الصباح من خلف مقود السيارة ورددت على تحيته بأحسن منها. ناديت على البشوتي فجاء ليقف بجواري وأعدت الساعة إلى راحة يده ليعيدها بنفسه إلى صاحبها. أوقف عاصم محرك سيارته ونزل منها وداعب البشوتي بعد إلقاء السلام. رد البشوتي السلام وانتظر حتى يفرغ عاصم من إخراج عدة صناديق كرتونية من مؤخرة السيارة. أعاد غلق حقيبة السيارة ونظر إلينا طالبا يد العون والمساعدة فاتجهنا للصناديق نرفعها كما طلب منا. مد البشوتي يده إليه والساعة الثمينة تحتل راحته المفتوحة. بتفاخر واعتزاز بالأمانة أعلن عثوره عليها في صفيحة قمامته. بهت الرجل لحظات وأمسك الساعة في يده يتأملها بعينين ذاهلتين.

تركنا عاصم دون كلمة وبخطوات متثاقلة تحرك ناحية درجات السلم قاصدا شقته. صعد في ذهول وأسرعت مع البشوتي بحمل الصناديق الكرتونية لنلحق به. أمام شقته أخرج المفتاح من جيبه واضعا إياه بحذر شديد في قفل الباب. فتح عاصم بهدوء ملحوظ

محاولا عدم إحداث أى صوت. دخل متلصصا على أطراف قدميه وهو يصيخ السمع. تبادلت مع البشـوتى نظرات استفسارية صــامتة عن تصرفـات صـاحب الشقـة. اقتربنا مــن الباب المفتـوح نتطلع بعيوننــا باحثين عن الرجل الذى سبقناه فى الدخـول. رأينا عاصم يهاجم غرفة نومه ويفتـح بابها ليفاجىء من بداخلهــا. سمعنا صراخ زوجته دلال وصــوت رجل أصــابـه التلعثم الغـاضب. لحظـات قليلـة من الجدال والصراخ بين امرأة ورجلين أحـدهما زوجها. تنطلـق عدة أعيرة نــارية لتستقـر داخل ضلوع بشريـة. يعـود الصراخ المرتفع مختلطا بنـزاع الموت المحقق.

.. ورأيت « الديناري » يدفع « أحـلام » أمامه بقسوة ، بعد أن لـوى ذراعيها خلف ظهـرها ، مقتحماً غـرفتي الزجـاجية ، يتبعـه رجالـه الأشداء الغـلاظ ، شاهـرين الرشـاشات ، وحـاملين قصعة كبيرة مملـوءة بالحطب وصفيحة مازوت .

وضعوا القصعة فى منتصف الغرفة ، سكبوا المازوت فوق الحطب وأشعلوا النيران .

اقترب « أبو الروس » سمسـار الأراضـى ناحيتى ، وقال محذراً :

— آخر كلام ، « الديناري » وافق يشتري الفدان بأربعين ألف ، ده تمن متر واحد يقطعه من الأرض لزوم قماين الطـوب ، بعدهـا غوروا بأرضكم يا غجر .

حاولت أن أرد ، لكن لسانى التصق بسقف حلقى .

ضرب أبو الروس كفا بكف وصاح :

— صحيح بنى آدم عينه فارغة مايملهاش إلا التراب .. !

أشار الديناري لـرجاله ، فقاموا بتجريـد « أحلام » من ملابسها ، دهنـوا الجسد العـاري با لمازوت ، أحكمـوا وثاقهـا إلى سيخ حديـدى طويل ، ورفعوها أفقياً فوق النار . حاوت أن أعتدل جالساً ، هالنى أن أطرافى الأربعة مشدودة ومربوطة إلى قوائم السرير المعدنى .

سمعت طرقات عنيفة على الحائط الـزجاجى ، حركت عينى ، رأيت رجال البلدة يدقون الزجاج بأكفهم ويصرخون ..

كـانت ألسنـة اللهب قد لامســت جسد أحــلام ، فسمعت نشيشـاً اقشعر له بدنى ، وشممت رائحة شياط جلدها الرقيق .

وعندمـا أطلقت أحلام صرخة مـدوية ، كـان رجالنا قـد نجحوا فى تحطيم الحائط الزجاجى ، واشتبكوا مع رجـال الدينارى ، الذين فروا هاربين أمام كثرة وجسارة رجالنا .

قفــزت أحــلام على السريــر ، فكت وثـــاقى ، ارتمت فى حضنى ، أجهشت بالبكاء ، ربت عليها بحنو ، فتحول نشيجها إلى نهنهة .

تحاملت على ، وتحركنـا ببطء فى الطـرقة الطـويلـة المظلمة ، عنـد السلالم توقفنا كانت النار تزحف صـاعدة السلالم نحونا ،فارتعبنا ، استـدرنـا نحـاول الهروب ، لكن النـار انـــدلعت من الخلف أيضــا ، فتخشبنا مبهوتين .

تنـاهى إلى مســامعنــا دقـات طبول ودفـوف ، تتخللهـا زغـاريـد مبحوحـة لنساء بلـدتنا ، فخبت النـار واضمحلت ، انقشعت سحـابة الدخـان الرمــادية ، فنزلنـا السلالم نتراقص بخفـة ، وعندمــا سمعنا صوتاً شجياً يغنى :

أنا كل ما أقول التوبة يابوى ترمينى المقادير ..

تأبطت أحــلام ذراعى وهى تدارى ابتســامتها الخجلى فى الطـرحة التل البيضـاء ، وتهادينا إلى أسفل خفيفين كعصفورين يغردان .

وعنـدمـا غادرنــا المستشفى ، رأينـا أهل البلـدة يقفـون فى صفين طـويلين ، ينثــرون علينـا الـورد والملبس وذرات الملح ، والـــرجـال يتقافزون بالعصى ويمارسون لعبة التحطيب أمام الموكب .

ولما اقتربنا من بـوابة السكـة الحديد ، خفتت الـزغاريـد ، تلاشت دقات الطبـول والدفـوف ، وتسلل إلى مســامعنا آهـات مؤثـرة لناى ، يصاحبها صوت المطرب الأسيان :

وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها ، جـانا نهار مقدرش يدفع مهرها ،
يا هل ترى الليل الحزين ، أبو النجوم الدبلانين ..

فجأة .. انشقت الأرض عن رجال الديناري ، انتـزعوا أحلام بقوة ، جرجروها من ضفائرها إلى شـط الترعة ، قذفوا بها ، غطست ، وعندما طفت .. كان المازوت قد غطى وجهها الخمري وشعرها البني الأثيث .

أشعل أحـدهم عود ثقـاب ، رماه على سطح الماء ، فـاشتعل ، ظلت بقعــة النـار تتسع حتى وصلـت إلى أحـلام ، فأمسكت بها النـــار ، وتحولت إلى كتلة من لهب ، فانفجرت صارخاً .

جففت الممـرضــة عرقي المنثـال بقطعـة شاش ، وعنـدمـا لامست حبات العـرق ، حروق وجهي وعنقي .. كـززت على أسناني مـن شدة الألم .

سألتها عن حالة « أحلام » قـالت أنها اجتازت مرحلة الخطر ، وأن حالتها تتحسن تدريجياً . أمرتني بالكف عن الحديث ، شمرت ذراعي ، وبحذر انغرست حقنة المهدئ في وريدي .

شعرت بأنـاملها تهدهـدني ، وغمرني فيض من طمأنينــة ، هدأت أعصابي المتوترة ، واعتراني صفاء وخدر لذيذين .

ومن جـديـد ، راحت المشاهـد تتـلاحق وتتـداح الصور المرعبـة ، ورأيتني واقفاً أمام بوابة السكة الحديد التي تشطر بلدتنا إلى نصفين ، سمعت جرس الإنذار يطلق رنيناً متقطعـاً ، والفانوس يرسل ومضات حمراء تحذيـريـة ، ورأيت سـائق سيـارة فنطـاس المازوت ينـدفع بالسيـارة في دوران حاد وعنيف ، محاولاً اجتياز البوابـة قبل وصول القطار ، فانقلبت السيارة على جانبها الأيمن .

فتح السائق بـاب الكابينة ، وفر هـارباً للناحية المقـابلة ، في اتجاه فيلا الدينـاري ، صـاحب سيارة المازوت وقمائن الطـوب ، والعلاقات

المريبة مع كبار القوم ، والكلمة العليا ، واليد الباترة .

انسكب المازوت من الفتحة العلوية للفنطاس ، بغزارة .. شق طريقه فى مسارب ثعبانية ، ترسم خرائط فى أرض الشوارع والحارات والأزقة .

هرعت النساء والبنات يحملن الجرار والأوانى والصفائح ، يملأنها من شلال المازوت ، يرتقين السلالم الخشبية ، لتشوينها فى غرف الخبيز وفوق أسطح البيوت ، وأثناء ذلك... كان المازوت المتسرب من الصفائح والأوانى ، يرسم خطوطاً متعرجة على السلالم ، تنتهى فوق الأسطح المتلاصقة للبيوت الواطئة المسقوفة بقش الأرز وحطب القطن .

تحلقنا حول السيارة المقلوبة ، سألنى الرجال عن السائق ، جرينا صوب فيلا الدينارى ، حاملين العصى والفئوس ، طرقنا الباب الحديدى بعنف ، فردت علينا البنادق الآلية والرشاشات من مزاغل برج الحمام ، فانبطحنا وزحفنا على البطون ، فى محاولة لتطويق الفيلا .

ما إن لمحنا دخانا كثيفاً ينبعث عند بوابة السكة الحديد ، حتى انتفضنا وانطلقنا عائدين نستجلى الأمر ، كانت نوافير النار تتدافع من فتحة الفنطاس وتلفح وجوهنا بسعيرها ، ظللنا نقذفها بحفنات التراب بلا جدوى ، بدأت النيران تتعقب خيوط المازوت ، آخذة طريقها إلى مداخل البيوت والزرائب ، ظلت النيران تسرع ، تلهث ، تفح ، صاعدة السلالم ، حتى وصلت إلى أماكن التشوين ، بضع ثوان .. وانفجرت صفائح وأوانى المازوت ، وتطايرت مثل القنابل فوق أسطح البيوت .

دقائق معدودة .. وأصبحت بيوت البلدة كلها ، قطعة من جهنم ،

آتـون جبار ينفث حمماً ملتهبـة ودخـانـا كثيفاً أسـود ، ورذاذاً غطى وجـوه الناس والغيطان والمساقى والترعة العمومية بطبقة سميكة من المازوت اللزج .

وسمعت صراخ جدتى :

— عليه العوض فى القطـن يا ولاد ، الدخان والهبـاب خنقوا القمر، وإزاى اللوز راح يفتح يا ولداه ..!

ذكـرنى نواح جـدتى ، بتلك الليلـة المشهودة والمحفـورة فى أعماق الذاكرة ، حين جلسنا على المصطبة أمـام الدوار ، أنا وأحلام وجدتى ، كان القمر قد استوى على عرشه المكين فى كبد السماء .

فـردت جدتـى ذراعيها فـدخلنـا تحت جناحيهـا ، رفعت وجههـا المتغضن للسماء ، ارتعشت خلجاتها بنشـوة غامرة ، وقـالت بصوت متهدج :

— بصوا كويـس للقمر يا ولادى ، دققوا ، مش حتصـدقوا ، الليلة بدر التمام ، بعد شوية ، راح يناغش القمـر لوز القطن بنوره ، ساعتها ـ بأمر ربى ـ يتفتح اللوز على طول ، سبحانه عالم الأسرار .

بعـد أن تناولنـا فتة الـرقاق بـاللبن الحليب مع جدتى انسحبنـا ، تسللنا هاربين صوب غيط القطن البحرى .

قالت أحلام غير مصدقة :

— معقول كلام جدتى .. !

رددت عليها :

— الميه تكدب الغطاس .

عند شـجرة الجميـز العجوز الحارسة للساقية العتيقـة .. توقفنا ، أسندت أحـلام ظهرهـا ، تشابكت أصابع يـديها فوق رأسهـا ، فبان خدها الأسيل شـهياً ونابضاً فى الضوء الآسر .

اقتربت ، وبحـركـة مبـاغتـة طـوقتهـا بـذراعى ، تحسست خدها المتوهج بشفتى ، أحنت رأسها ، وبحركة خاطفة تملصت ، انسلت من بين ذراعى كمهرة حرون ، وانطلقت تعدو بـرشـاقة على المشاية ، حين سقطت .. اصطدمت بها ، وقعت فوقها ، تـدحرجنا متلاصقين ، كانت أنفاسها تتسارع وصدرهـا يعلو ويهبط بطريقة أخافتنى ، فكففت عن المطاردة .

كانت أنفاسها اللاهثـة المضطربة تتردد فى صدرى ، لثمت جبينها وبين الحاجين ، فهـدأت تمامـاً وأغمضت عينيهـا ، وقبل أن تتماس الشفاه .. أفقنـا على صوت طـرقعات واهنـة ، تشبه زقـزقة عصـافير الجنة ، مع الوقت تزايد معدل الطرقعات وأصبحت أكثر وضوحاً .

أصخنـا السمع واعتـدلنا جـالسين ، رأينـا مـايسلب اللب ويلجم اللسـان ، كانت لـوزات القطن تتفتح وكأن عصـا سحـرية تلمسهـا ، فتستيقظ من سباتها ، ظللنا نرقب اللوحة الربانية الحية مأخوذين .

لم نـدر كم مـر علينا من الـوقت ، حين رجعنـا متعـانقين كنا قـد ارتوينا تماماً .

وأشعر بالدفء يسرى فى أوصالى ، وتـرتفع درجة حرارة أعضائى شيئاً فشيئـاً ، وتجتاحنى حمى تصـل حد الاشتعـال ، وأرى جسدى وقد اكتسى بحمـرة قانيـة ، سرعان ماتحولـت إلى الأزرق ، ثم مالبث الدخـان يتصاعد من أعضائى فى خيـوط رفيعة حلزونيـة ، فارتعبت ، ازدادت خيوط الدخـان سمكاً ، فتيقنت أننى مشتعل لامحالة ، انفلتت منى صرخة استغاثة مجنونة .

هزتنـى الممرضة بلطف ، وضعـت الترمومتر تحت لسانى ، قـالت للطبيب أن حـرارتى ارتفعت درجتين ، فأمـرهـا بحقن كيس المحلـول بأمبول نوفالجين .

ومن جـديد تصطخب الأشيـاء داخلى ، تتقـافز الصـور الرهيبـة وتتداخل ، هـاهم الرجـال يسحبون المواشى المشتعلـة من الزرائب ، هاربين فى اتجاه الترعة ، لكن اعتراهم الذهـول حين شاهدوا أن مياهها مغطاه بطبقـة من المازوت المشتعل ، فهـاموا على وجوههـم ، والنساء يحملن الصغـــار على أكتـــافهن ويمسكن بصرر خبـأن فيهـــا أغلى مـايمتلكن ، والشبـاب يصـارعون النـار فـوق الأسطح ، ويطلقـون الأعيرة النارية على الحمام المشتعل .

طـوفـان رهيب من البشر المذعورين ، يتخبطـون ، يستيقظـون ، يتصايحون ، يتدافعـون ، يتذرعون بعبارات الاستغفـار والاسترحام للسماء ، لعلها تكشـف عنهم الغمة ، يلوحـون بأيديهم بـإشارات غير مفهومة ، وتنطلق كلماتهم المبتورة مستنفرة ، والبنات يلطمن الخدود ويلطخن الرؤوس بعجينة التراب الممزوج بالرماد والمازوت .

وعنـدمـا وصلت سيـارة إطفـاء واحـدة ، شرعت تضخ الماء فـوق النيران التى أوشكت على الخمـود ، فـراحت ألسنـة اللهب تنـدلع من جديد وتزغرد ، صرخنا فيهم :

— دى نار مازوت ياعالم ، يلزمها رغاوى .. !

لملموا الخراطيم وانسحبوا ، تركـونا فى صراع غير متكافىء مع نيران شرسة وعنيدة .

وسمعت صراخ جدتى :

أحلام بنت عمك مغمى عليها فى القاعة القبلية .

اندفعت ناحية الغرفة ، دفعت الباب بقدمى .

كانت أحـلام مسجاة على السرير ، والغـرفة معبقة بـدخان كثيف خانق .

هـــززتها ، لم تستجب ، رفعتهـا من الخصر ، حملتهـــا على كتفى

وهرولت مندفعاً ناحية الباب . فى منتصف حوش الدوار ، سقطت كتلة مشتعلة من السقف ، وأمسكت النار بفستانها النايلون .

اختل توازنى ، أسرعت الخطى ، فأنكفأت قبل أن أصل إلى عتبة الدوار ، تهاوت علينا عروق السقف والتعريشة المشتعلة ، ولم أشعر إلا وأنا ممدد بجوارها فى سيارة الإسعاف .

سمعت همهمات عند وصولنا إلى المستشفى ، بأن نصفها السفلى أصيب بحروق من الدرجات الثلاث ، وأنهم سيضعونها فى خيمة اكسجين .

غامت بى الدنيا ، وسمعت مكبر الصوت الذى أطلقه الدينارى ، ينادى بأنه مستعد لعلاج المصابين على نفقته ، مهما كلفه ، حتى وإن لزم سفر البعض للعلاج بالخارج ، كما أنه يتعهد ببناء البيوت التى احترقت أو تهدمت ، بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح ، وأنه سيصرف إعانات فورية لإعاشة المتضررين .

هلل الرجال فرحين بالعرض المغرى ، لكننى صرخت فيهم :

— احذروا يا خلق ، إنها خدعة جديدة ، سيكون ثمنها أرضكم التى ستلتهمها قمائنه ، من ذقنكم سيفتل لكم حبالاً تشنقون بها أنفسكم ، لابد أن نسقيه من نفس الكأس التى تجرعناها ، إننى أشك أنه وراء هذه الكارثة ، ربما كانت خطة شيطانية للاستيلاء على أرض بأبخس الأثمان ، من يدرى ربما كان السائق وسيارة المازوت هما وسيلته لإحراق بلدتنا بما فيها ومن فيها .. ؟!

ارتسمت علامات الدهشة والجدية على تقاطيع الوجوه الغاضبة ، زاموا فى صوت واحد :

— النار ولا العار يا دينارى ، على الباغى تدور الدوائر يا دينارى .

اشتعل الـرجـال حماسـة ، حملـوا البنـادق والعصى والفئـوس ، انخرطوا فى طوفان هادر مدمـدم حتى وصلوا إلى الفيلا ، قذفوا بكرات مشتعلة مشبعة با لمازوت ، أمسكت النيران بالأشجار المسيجة للفيلا ، ثم زحفت حثيثـا للداخـل ، ورأينا ألسنـة اللهب تتعـاظم وتزغـرد من النوافـذ الزجاجية ، فهللنـا وكبرنا ، وعندما تحولت الفيـلا إلى كتلة من النار ، ضربنا حصاراً حول الباب الحديدى الضخم نترقب خروجه ..!

قالوا له أذهب إلى الانتخابات .

عبدا لمتعال رجل فلاح غلبان اجير يطيع الأمر.. ذهب.

قالوا له لا تتأخر .

هب عبدالعـال من نومه قبـل أن يصيح الديك. لبس جلابيته الوحيدة، هرع إلى لجنة الانتخابات.

قالوا له صوتك امانة فى عنقك .

ظل عبـدا لمتعال لا يهز عنقـه لمدة أسبـوع. حتى يحتفظ بـالأمانـة سليمة سا لمة، ويسلمها إلى الحكومة .

قالـو له صوتك سيحسم نتيجـة الانتخابات لم ينطق عبـدا لمتعال. هو طـوال عمره لا ينطق. لكى يستطيع أن يكـون صوتـه حاسما كما يطلبون .

فى اللجنة امسك عبـدا لمتعال بـورقة الانتخـابات تفـرج عليها كما يتفرج كل مرة. أشـار مساعد رئيس اللجنة إلى الرسـومات ا لموجودة. قال له.. ضـع علامة صح أمام الرمز الذى تختاره. لم يفهم عبدا لمتعال شيئا. هـو لا يريد أكثر من صـورة النخلة العالية ليضـع تحتهـا خطا ملويا عند أسفله كا لمغرفة حسب أوامر العمدة .

فى الركن خلف الستارة أخذ يبحـث. عن النخلة . حتى هذه اللحظة لا يعرف عبدا لمتعال ماذا حدث له ؟

تذكر وهو خلف الستـارة ا لمرشح الاخر الذى حضر إليهم شد على يد رجال القرية الذين اتوا للفرجة فى السرادق .

عندمـا اتى دور عبدالمتعال. أحسّ بقبضـة المرشح القوية. قـال له انت صاحب القرار أنت الذى ستقرر من سينجح فى الانتخابات .

ليلتها لم ينم عبدالمتعال. يتقلب فوق الفرن يتذكر كلمات المرشح.. لأول مـرة يشعر انـه مهم.. انـه ليس مجرد الثـور والبجم كما يدللـه العمدة. يتعجب بزهو انه هو الذى سيحسم نتيجة الانتخابات .

رغم أن عبدالمتعال ضخم كالثور إلا انه طيب جدا .

طوال النهـار يناديه العمـدة. واد يا عبـدالمتعال. أنت بجم لا تفهم. أذهب. تعالى.. أنت جاموسـة لا تحس. وعبدالمتعال لايردد غير حاضر يا عمدة .

فى تلك الليلة التى يشتريها بعمره كلـه. أحس. لأول مرة يحس. انه أفضل من العمـدة. وأقـوى من العمـدة.. كيف لا.. والمغـرفـة التى سيضعها تحت الرسم هى التى ستنجح صاحب الرسم !!

أحس عبدالمتعال بـالورطة التى وضعه فيهـا التفكير والتذكر. أول مرة يفكـر. هذا مـا جناه من التفكير والتـذكر. انـه طوال عمـره يأكل ويشرب ويشتم وراضى أو غير راضى بحياته لا تفرق هو لا يذكر أنه فكر مـرة أنه راض أو غير راض بحيـاته وهل بهذا يفـرق عن الحمار الذى عنـده فى البيت !! هذا مـا أخذه من التفكير والقـرف. يشتم نفسه بنفسه. جلبه لنفسه. كان مرتاحا. لا يفكر ولا يتعب .

قالـوا له ضع العـلامة تحت النخلة العـالية. هـه لن يضعها تحت النخلة. سيضعهـا بمزاجه انه يحب صـورة الجمل. هو الوحيـد الذى يمكن أن يمثله.

أخـذ يبحث عن صـورة للجمل لم يجد. الله يخرب بيـوتهم لا أحـد يمثله فى هذه الانتخـابات. كلها صور لا تمثلـه. السيارة . الطائرة هل هـو ركب فى حيـاتـه سيارة ليركب طـائر.. وقعت عينـاه على صـورة

ميزان.. ليكن الميزان.. لعن الصور والرسم والانتخابات. حتى الميزان فى الصورة غير معدول.

لقد مل عمره كله هذه الموازين المقلوبة.

ولو لن يضع العلامة تحت النخلة العالية.. يريد أن يعمل شيئا مرة من نفسه لا يؤمر به . طوال عمره يطيع الأوامر.. انه مثل الثور فى الساقية . يجرها إلى أن يتوقف قلبه. لا يملك أن يتحرر منها. انه مثل البهيمة التى تجر الساقية. لا عقل ولا حرية ولا إرادة يمشى ويسير ويدور بأمرهم ورغبتهم .

لا لن يكون مثل البهايم ولن يضع العلامة تحت النخلة العالية .

هو يريد أن يحس انه استطاع أن يقول لا. حتى ولو لم تكن امام أحد. يكفى أنها أمام نفسه. طوال عمره يقول نعم. ولم يتحسن حاله.. ولن يكون اسوأ مما هو فيه يقول نعم ويحس طعمها فى حلقه مر كالحنظل. سيقول مرة فى نفسه لا.. لا.. لا..

وجد عبدالمتعال فمه يفتح وحده مثلما تصل الكهرباء المقطوعة فجأة لراديو العمدة.. لا..لا..

الله جميلة كالاغنية.. لا ياحبيبى لا. عبدالحليم يغنيها.. نار ياحبيبى نار.

أحس بطعمها جميل ولذيذ. أول مرة يتذوق طعم «لاو كررها منتشيا.. ما هذا الشعور الساحر؟. ما هذه الكلمات المسحورة التى تجعله ينتشى كما لو كان قد شرب جردلا من البوظة ؟

فى قمة نشوة عبدالمتعال. هدر صوت العمدة. تزلزل كيان عبدالمتعال كله.

واد يا عبدالمتعال . لك ساعة بالداخل يا بجم .

رد عبدالمتعال وهو يلملم نفسه .

ماهو يا عمدة خلاص .

ارتجف عبدا لمتعـال كا لمحمـوم. شعر بـالأرض تهتز تحتـه. اسرع بالقلم تحت العربية. أى رسم الا لنخلة العالية. لتكن العربية. يكفى أن الرجل شد على يده قال له كلاما يساوى عمره كله.

دفع عبدا لمتعـال يده لترسم المغـرفة تحت العـربية. تسمـرت يده تحت الصورة. كاد يصرخ غيظا.

كرر المحاولة.. لم يستطيع .

طفح جسمه كله بالعرق فى عز الشتاء .

كل أعضاء عبدالعال ترتعش. لا يقوى حتى على امساك القلم .

تحركت الستـارة. برز وجـه العمـدة. فم عبـدا لمتعال يـرتعش ولا يتكلم دوت يد العمدة على قفا عبدا لمتعال فاتقد نارا.

شد العمدة الورقة من عبدا لمتعال . أشار إلى أحد الرسومات .

— هذه هى النخلة يا بجم .

سحب العمدة القلم منه وضع العلامة بنفسه تحت النخلة .

ابتسم العمدة لرئيس اللجنة .

— ألم أقل لك انه كالثور لا يفهم شيئا . .

عندما زارنى الأرق فى تلك الليلة الصعبة ، لجأت إلى اليوجا أحاول تطبيق بعضاً مما فهمته . قالوا أنه يمكن أن يصدر العقل أوامره لأعضاء الجسم بقوة وحسم فتطيع حتى أنه يمكن للإنسان أن يخفض عدد نبضات القلب أو درجة الحرارة .

فى تلك الليلة الرهيبة أرقت كثيرا حتى توترت ، أحاول أن أجذب النوم دون جدوى . وخطر لى استخدام اليوجا فى إصدار أوامر العقل إلى الجسم أن ينام ، ولذت لى الفكرة ، فأصدرت الأمر إلى أصابع القدمين أن تنام ، ثم تبعتها إلى الساقين والذراعين والبطن وكل أجزاء جسدى . اكتشفت أن أعضائى قد استجابت ونامت كلها ، حتى أنى لم أستطع أن أرفع ذراعى لأعلى ، فقد استجاب ونام ، ولم يعد يتلقى أوامر المخ . فرحت بالاكتشاف وتأكدت أن جسمى كله قد نام ، وتبقى العقل متيقظا احترت فيه كيف أجعله ، يقر ويهدأ ثم ينام هو الآخر ، حاولت ، ولا فائدة .

مضت ساعات وأنا على هذه الحالة بعقل نشط وجسد هامد نائم ثم أحسست الرغبة أن أتقلب ، ولم يستجب جسدى للمحاولة أبدا ، وبدا ذلك غريبا للغاية فاستسلمت . انتابنى بعدها شعور بالحاجة إلى أن ألبى نداء الطبيعة ، وتزايدت رغبتى أن أقوم إلى الحمام . وعاندنى الجسد أن يستجيب ، بينما رغبتى تتزايد حتى أصبحت ضرورة ملحة وإلا .. !

لماذا استجاب الجسد للأوامر بالنوم ، ولم يستجب للأوامر

بالحركة ، والنظريـة واحدة هى تحكم العقـل بالارادة القويـة فى كل الجوارح حاولت أن أنسى احتيـاجى للحمام دون جدوى حتى أصبح ذلك أملاً بعيداً . أحسست بمثانتـى تكاد تنفجر من الضغط داخلها فى احتيـاج ملح وعنيف لأن أتحرك ، ولكن بـلا فائدة فـالجسـد كله قـد تصلب نـائما . هـذه التجـربة اللعينـة القـاسيـة جعلتنى أحس آلاف المسامير تنغرس فى جسدى .

فجأة تغير الوقت والمكان ، وجدت نفسى أرقـد جوار جدار المنزل ، نـائما على ظهـرى فى الحديقـة ، أرى السماء والنجـوم وأسمع حفيف الشجر ، ورأيت أحد الأطفال العفـاريت فوق سطح المنزل يمسك بيده حجراً كبيرا يصوبه ويتحرك به ليسقطه بأحكام نحوى .

رأيت الحجر يسقط، حـاولت أن أتزحـزح قليلا لأتفادى الصـدمة. الجسد كـان نائما، وهـوى الحجر فـوقى تماما وأصـابنى، وصرخت بقوة ولم تخرج الصرخـة أبدا، بل خـرجت دفعة من هـواء الألم القاتل شمل جســدى كلـه. أريـــد أن يسعفنى أحـدهم أئن، أتــأوه، أنــادى ولا مجيب. كل ذلك ولم يفارقنى الشعور القـوى بالحاجة إلى الحمام ويضاعف من عذابى .

آهة طـويلة عميقة سمعتهـا تخرج منى عندمـا أحسست بتيار من الماء الدافىء ينســاب فوق فخذى، فشـهقت، هل أنا..، شعـور لم أحسه منذ أكثـر من خمسين عاما، والبلل با لماء الـدافىء يغمر نصفى الأسفل والشـهقات وآهات العجب والأسف والخجل لما أنـا فيه تصدر منى بلا توقف .

يدان قويتان إحداهما فوق كتفى تهزنى بشدة، والأخرى أصابعها فـوق عينى تشـد الجفون لأعلى أن أستيقظ. وجـدت روحى تعـود إلىّ كما لـو كانت آتيـه من قعـر بئر عميقـة، وصـوت زوجتى الملتاعـة فى همهمات بعيدة تهمس أن أفيق. وأفقت لأجد العـرق يغمرنى وأنفاسى

متهدجة، والرعب يتملكنى .

قالت أرعبتنــى كثيرا، ظننت أنك.. شددت الغطاء فـوقى ليسـترنى، وأمتــدت يدى فى حــركة مسروقــة تتحسس مــلابسى. المفاجأة. لقـد وجدت ملابسى جافة، كلها جــافة تماما. وانقلبت أناتى وتأوهاتى إلى قهقهــة عاليــة وقفزت بسرعــة أجرى فى اتجاه الحمام. قــالت زوجتى. اللهم اجعله خيرا .

الفهـــرس

صفحة